

الجرمنتيون

سكان جنوب ليبيا القدماء



تأليف

تشارلز دانيلز

تعريب

أحمد اليازوري

دار الفرجاني

طرابلس - ليبيا



تأليف

تشارلز دانيلز

تعريب

أحمد اليازوري

دار الفرجاني

طرابلس - ليبيا

الطبعة الأولى ١٩٧٤
هذه الطبعة ١٩٩١

حول المؤلف

من هم الجرمنتيون ؟ إذا ما رجعنا إلى المصادر الأدبية القديمة التي كتبت عن هؤلاء القوم لم نجد سوى مجرد صفحات قليلة في مؤلفات هيرودون وبليني وسترابون وتاسيتوس وبطليموس وبومبونيوس . وهل كانت عاصمتهم « جَرَمَة » هي مدينة جَرْمَة الحالية المهجورة ، أم ان علينا البحث عنها في مكان آخر ؟ وما هو مدى اتساع المنطقة التي عاشوا فيها ؟ وكيف عاشوا دون ان يكون لهم مدخل إلى البحر الذي كان يسيطر عليه أعداؤهم الرومان ؟

إن مؤلف هذا الكتيب، وهو « تشارلز دانيلز » البريطاني، قد نال شهادة الليسانس في التاريخ الحديث بدرجة شرف ، ثم نال الماجستير ، ثم عين زميلا بحاثة في كلية نيوكاسل ببريطانيا من سنة ١٩٥٩ إلى سنة ١٩٦١ .

وقام دانيلز بصفته عالم آثار محترف بعدة حفريات في بريطانيا وليبيا وإيطاليا وفرنسا ، وسافر مدة طويلة في أنحاء أوروبا

وأفريقيا . وقد غطت بحوثه ، بالإضافة إلى الجرمنتيين ، فن البنـاء الروماني والديانة الرومانية ، وزار ليبيا لأول مرة في سنة ١٩٥٨ ، حيث توجه إلى فزان بصحبة زميلين آخرين لدراسة آثار الجرمنتيين ومقارنتها مع آثار مَرزة . وقد أمضى سنة ١٩٥٩ عدة أسابيع من شهري يوليو وأغسطس في دراسة آثار وادي الآجال ، وكان أول ما رآه هو « قصر مـارة » . أما في اجازة سنة ٦٢ – ٦٣ فقدم قام هو والسير إيان رشمون بالعكوف على اجراء حفريات في منطقة جرمة بدعوة من إدارة الآثار الليبية .

وفي سنة ١٩٦٥ قاد المستر دانيلز بعثة إلى فزان مدتها ثلاثة أشهر ، حيث أجرت عدة حفريات في وادي الاجال وزنككرة (التي اكتشف فيها مقر الجرمنتيين) ، وجرمة وسانية جبريل وموقعين آخرين . وواصل هذه الحفريات سنة ١٩٦٧ ، ولكنه ركز عمله هذه المرة في زنككرة .

وحضر المؤلف سنة ١٩٦٨ مؤتمر الجامعة الليبية ببنغازي حول موضوع « ليبيا في التاريخ » ، حيث قدم بحثاً عن الجرمنتيين . ثم قام بعد ذلك بأبحاث عملية في منطقة قصر مارة ومرزق وزويلة ، ولكنه عاد إلى ليبيا سنة ١٩٦٩ لاجراء حفريات واسعة النطاق في جرمة .

مقدمة

هذا البحث هو عبارة عن موضوع موسع ومنقح عن مذكرة دونت أول الأمر سنة ١٩٦٩ كي تكون دليلاً لرحلة حقل قامت بها الجمعية الليبية لاكتشاف النفط . ولكنني ضمنتها عند إعادة كتابتها آخر النتائج التي توصلت اليها في الأبحاث العملية ، وراجعت تواريخها ، ومؤلفات بالبوس ، وفهرس بليني وعادات البربر ، ومؤلفات رومانية أخرى ، كل هذا في محاولة مني لجعل هذه الدراسة موضوعاً حراً وعلمياً ، ينفع المتخصص ويمتع القارىء أياً كان . ولقد ضمنت الفصلين الأخيرين الكثير مما ورد في الكتاب الكلاسيكي « الليبيون الشرقيون » للمؤلف « بيتس » ، الذي ما زال كتابه ذا أهمية كبرى حول هذا الموضوع . ولا بد ، بالإضافة إلى هذا الكتاب ، من التنويه بكتابي « بوفيل » و « كابوتو » كمصدرين أساسيين لأي دارس يريد ان يتوسع في البحث عن الجرمنتيين . ولا بد لي من تقديم الشكر إلى الادارة العامة للآثار الليبية وخاصة للدكتور محمد أيوب وزملائه ، وللكثير من المساعدين والأصدقاء في ليبيا وبريطانيا .

لقد قرأت ما كتبه « ديولي » منذ سنوات إذ يقول « ان اسم الجرمنتيين في الواقع لا يعدو كثيراً حد الرمز والخيـال . انه يطلق على قوم لم يُعرّفوا التعريف الكامل ، عاشوا في منطقة مبهمة ومملكة أسطورية ، وفي مدة من الزمن غير محدودة . وقد أصبحت المقابر والعربات ورسوم الصخور وكل شيء ينتسب للجرمنتيين ، من طرف الصحراء إلى طرفها الآخر : من جبـل عوينـات إلى وادي مثندوس . إن اكتشاف الجرمنتيين أمر ليس بالهين ، بل هو عظيم ومفاجيء كما لو كنا قد اكتشفنا هذه الأيام فقط حوض البحر المتوسط أو كولوزيوم روما ، أو مدينة قرطاجنة ، أو رأس شرمة أو معابد الكرنك . ولكن هـذا العمل يجب ان يتم ، رغم أنه سيكون جهداً طويل الأمد وفي حاجة إلى زمن طويل لاكماله وإنجازه » .

ورغم الكتابات الحديثة حول الجرمنتيين إلا أن مـا قاله ديولي يبقى صحيحاً كما كان من قبل . وقد حاولت في بحثي هذا أن أبين أنه كلما اكتشفنا المزيد من الشواهد والأدلة والتزمنابها، كلما ازداد الموضوع خطورة وجدية وافادة ، وخيـالاً كذلك. هذا ، وآمل ان يجد القاريء فائدة فيما بين يديه وان يشعر بأن البحث والتعليل حول الجرمنتيين قد بدأ فعلا وبشكل جدي .

الجرمنتيون

حظي الجرمنتيون بمكانة خاصة بين القبائل الافريقية الـتي دونها وكتب عنها قدماء الجغرافيين والمؤرخـين . وهم ينتمون إلى فترة تاريخية بعيدة شبه اسطورية ، مثلهم في ذلك، تقريباً ، مثل الساطيريين (الهة الغابات عند الرومان) ، وآلهـة الغنم عند الاغريق . وقد كان الجرمنتيون أقوياء جبابرة ، ذوي قوة بدنية عظيمة ، وقادتهم رغبتهم في المشاركة في شئون المناطق الساحلية إلى صراع مع روما . وكلما حدث ذلك لم يكن بُعـد عاصمتهم ونأيها يمنعهم من الانتقام الروماني ، رغم ان الحملات الرومانية التي كان يُبعث بهـا إلى الجنوب لمعاقبتهم كانت هي نفسها تصاب بمس من الخرافة الناتجة عن المسيرات البطولية عبر الصحاري الرملية الشديدة الجفاف والحرارة ، والمجهولة المسالك والطرق ..

ولكن يبدو أن الجرمنتيين أصبحوا فيما بعد اكثر اخـلاداً الى السلم ، وإنهم فتحوا منافذ بلادهم لتجارة الرومان وتأثيراتهم ومساعداتهم الفنية . ولكنهم ظلوا ، حتى في ذلك الوقت، ببعد

مملكتهم وعاصمتهم يمثـــلون ، في خيال الشعراء والعامة على السواء ، أقصى نقطة معروفة في جنوب عالم ذلك الوقت .

أما مصادرنا الوحيدة اليوم عن هذه القبيلة فهي حفنـة من المؤلفين وعدد من النحوت والنقوش والصور المهارية البارزة ، ومنها لا نستطيع، لسوء الحظ ، إلا اكتساب أقل الانطباعات. ومع ذلك يمكن في بعض الأماكن والأحيان زيادة هذه المعلومات نتيجة لبحوث الاثار والاستكشاف .

يجري الربط منذ أكثر من قرن بين عاصمة الجرمنتين وبين مدينة جرمة (المهجورة حالياً) بوادي الاجال . ثم أدى المزيد من الجهود الأخيرة ، والتي بدأت في الثلاثينات ، إلى تجليـة بعض الأمور عن الجرمنتين أنفسهم وعن ثقافتهم واقتصادهم ، وأخيراً عن مدى امتـداد واتساع مملكتهم في منطقة فزان . ورغم ان الصورة العامة لم تزل غير مكتملة الجوانب إلا انـــه يمكن ، على الأقل ، رؤية معالمها واستيعابها .

الجغرافيا والوصف العام

عندما دوّن هيرودوت مؤلفاته التاريخية حوالي سنة ٤٤٥ قبل الميلاد ، سجل فيهـــا ان مسيرة عشرة أيام إلى الغرب من آمون (معبد زيوس آمون في واحة سيوة غربي مصر) توصل الانسان إلى عجيلة (وهي واحة جالو) ، وان السير مـــدة عشرة أيام أخرى من عجيلة تنقل المرء عبر « رواب من الملح وينابيع وأشجار النخيل المثمرة » . هنـا عاش الجرمنتيون » أمة بالغة المظمة ، تزرع الأرض وتضع التربة فوق الملح . » كما يقول هيرودوت . ثم يردف القول : « ويسافر الجرمنتيون على عربات ذات خيول أربعة ، ويطاردون بها الاثيوبيين سكان الكهوف ، لأن الاثيوبيين سكان الكهـــوف كانوا يسرعون في سيرهم على الاقدام أكثر من أي قوم وصلتنا أخبـــارهم . » ويسجل هيرودوت ان من بـين ممتلكات الجرمنتين الأخرى ثيرانهم الخرافية التي تسير إلى الخلف أثنـــاء رعيها ، فيقول : « وكان عند الجرمنتين الثيران التي تسير إلى الخلف اثناء الرعي لأنها لا تستطيع السير إلى الامام ، إذ أن قرونهـــا تغوص في

الأرض إذا فعلت ذلك . وهي ، فيما عدا هذه الصفة ، مثل بقية الثيران ، سوى ان جلودها أسمك ومختلفة الملمس . » هذه هي معلومات هيرودوت .

وقد عرفت العربات ذات الخيول الأربعة في برقة أيضاً ، حيث تعلم الأغريق فن سباق العربات من السكان المحليين وأصبحوا مهرة للغاية في ذلك . وقد عرف استعمال هذه العربات في فزان ويبدو هذا من الفن الصخري ومن الأدب القديم (كما جاء في انيادة فيرجل في النص الذي سنورده فيما بعد) وتعتبر بعض الحفريات والرسوم الصخرية أقدم من المصادر الادبية . وقد أثار اكتشاف هذه الاشكال مزيداً من الاهتمام وخلق مجالاً للتفكير والتأمل عند العلماء وعند غيرهم ، بما فيها المنظر الرومانسي الخيالي لأحد طرق عربات الخيول التي تسير عبر الصحراء من البحر المتوسط إلى النيجر .

وعند دراسة رسم هذا الطريق ظهرت عليه علامات تدل على انتشار العربات من شمال تبستي إلى تسيلي وجبال « حجار» ثم الى جنوب أوران والى موريتانيا وجنوب مراكش ، وكذلك إلى غربي جبال أطلس ، ولكن يبدو ان هذا الطريق يشير الى مدى اتساع استعمال هذا النوع المشترك من أدوات النقل أكثر من اشارته إلى شبكة من طرق الصحراء . ويلاحظ بصفة خاصة وجود « الفرس الطائر » (الذي يعدو بسرعة وعلى شكل يشبه الطيران) ، والذي تميز به طريق طرابلس ــ جاو

في تسيلي وفي مجموعة حجار البعيدة ، أما فيما عدا ذلك فيعتبر نادر الظهور . وهذه المجموعة الخاصة بحجار تبدو على الخريطة ، كما تبينها العالم « لهوت » ، في شكل طولي لا عرضي ، ممتد من الساحل إلى النيجر . ولكن الثلث الشمالي من هذا الطريق خال من الأمثلة إلى حد كبير . غير أن عدم وجود أي أثر للعربات أو سروج الخيل عند الجرمنتين أو عند جيرانهم في الجنوب والجنوب الغربي لا يغلق ميدان المناقشة والتأمل بسبب الحقائق والاثار الملموسة الواقعية ، بل يبقى مع ذلك مفتوحاً للتخيل والتصور .

أما الجغرافيون الذين كتبوا في الفترة الواقعة ما بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي فلم يضيفوا إلى ما كتبه هيرودوت شيئاً يذكر ، وحتى أشعار فيرجل الخالدة تحكي لنا عظمة الامبراطورية الرومانية أكثر من ذكرها الجرمنتيين ، رغم ان أبياته التالية تعتبر نظرياً حديثاً عن الجرمنتيين أنفسهم قالها عندما وصل أحفاد طروادة إلى ليبيا هاربين من الموت: «هذا هو الرجل الذي سمعتم عن وعد القدر به، أوغسطين العظيم والقيصر الخالد ، الذي سيعيد مجد العصور الذهبية بين حقول لاتيوم ، والذي سيبسط امبراطوريته إلى ما وراء الجرمنتيين والهنود ، لتمضي إلى عالم النجوم ومجرى الشمس . » ثم يأتي المؤرخ بليني بعد أكثر من نصف قرن ليقدم لنا تفاصيل الحملة التي مدت سلطة روما إلى الصحراء ، والتي

ربما اليها يشير فيرجل . وفي زمن بليني تقدم جيش آخر إلى جَرَمَة ثم رجع يحمل المعلومات الكثيرة عن تلك المناطق. وقد جاءت معلومات بليني أوفى مما جاءت عليه معلومات هيرودوت. وعندما يبدأ في الحديث يتكلم عن الاراضي الممتدة بين الساحل والجرمنتيين (الشكل رقم ١) ، ويذكر ، مبتدئاً من الشمال الى الجنوب ، » فزانية (فزان) وقبيلة فزاني ، ومدينة سلابة وسدّامي في اتجاه « صبراته » . ثم يذكر الجبال السوداء التي لها « شكل من عانى من النار » أو لأنها احترقت من اشعاعات الشمس . » ثم يتجه إلى الصحراء . وقبل ان نواصل وصف بليني نود ان نشير إلى ان تعريف غدامس باسم « سدّامي » يؤيد ما يقوله بليني من أن : فزانية والفزانيين يوجدون شمال الجبال السوداء وليس جنوبها . وتمتد فزانية حسبما يرى بليني من الجبال السوداء في الشرق ومع طول الحافة الشمالية لحمادة الحمراء ، وتمتد غرباً إلى غدامس . ولكن اعتبار هذه المنطقة تابعة للجرمنتيين ليس امراً مؤكداً حسب نص بليني ، رغم أن أوربك بيتس وغيره كانوا يعتقدون ذلك . ثم ان تسمية بليني لسكانها بالفزانيين وتحديده مكاناً الجرمنتيين إلى الجنوب من المنطقة لا يوحي بذلك . ثم إن وضع فزان إلى الشمال من الجرمنتيين وبشكل منفصل عنهم ، كان ما يزال مجال اصرار الكتاب المتأخرين .

وبينما يواصل بليني رحلته الى الجنوب يذكر ويدون

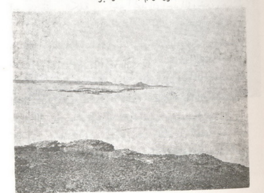


الشكل رقم ١ : المدن الساحلية والحصون واراضي الجرمنتيين

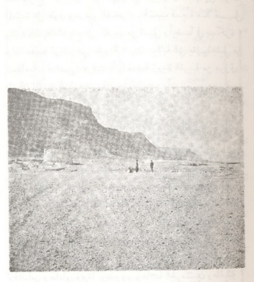
الجبال السوداء ثم الصحراء (مريو بن عفن ورملة الكبيرة) ثم يأتي الجرمنتيون بعد ذلك في « مدينة تسمى ثلجة ودبريس ، التي يفيض بقربها نبع تغلي مياهه من منتصف النهار إلى منتصف الليل ، ثم تتجمد برداً ساعات مماثلة حتى منتصف النهار ، وفي جَرَمَة ، « أقدس مدينة عند الجرمنتيين » ، كما يقول بليني . وقد أثار نبع دبريس مدينة جرمة خيال الرومان وعاشا مخلدين في الادب الروماني ، في حين لم تبلغ ثلجة نفس المكانة . وعلى أي حال تعتبر هذه المواقع الثلاثة جرمنتية دون أدنى شك ، لأن القائمة التي يقدمها بليني بعد ذلك تشمل جميع المدن والاقوام والأنهار والجبال المدونة في سجل انتصار « كورنيليوس بالبوس » . ويعتبر هذا السجل من جهة أخرى شاملاً لكل الاماكن والأقوام التي هزمت في الحملة ولا يقتصر فقط على ما كان من هذه الأماكن والأقوام داخل نطاق مملكة الجرمنتيين ، لأن من بين ما دون في السجل سيدامة (غدامس) والجبال السوداء ، ونحن نعرف انها كانت خارج حيز النفوذ الجرمنتي . أما الاماكن الأخرى التي دونت حسب ترتيبها في سجل انتصار بالبوس فهي ، كما يخبرنا بليني (بالإضافة الى جرمة وسيدامة) : « مدينة تبوديوم ، وشعب نيترس ، ومدينة مجلس جميلة ومدينة أو شعب بوبيوم وشعب أبني ومدينة ثوبان ، والجبل الأسود ، ونتيبروم ، ومدينة رابسة ، وشعب فسيره (دسيرة) ، ومدينة دبريس ، ونهر نثابور ، ومدينة ثبساجوم ، وشعب تماجي ، ومدينة بوين ، ومدينة برق ، ونهر



الصورة رقم ١ : آثار جرمة

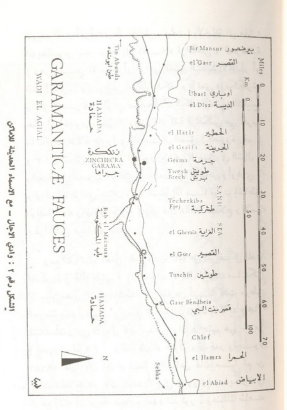


الصورة رقم ٢ : وادي الاجال في فجيج



الصورة رقم ٣ : جرف الاجال في براك

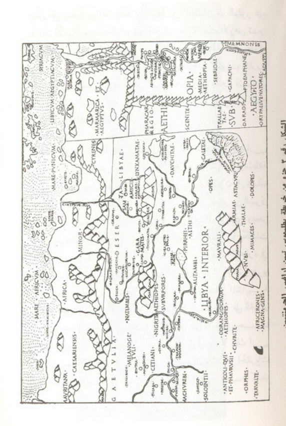
دسيباري ، ومدن براكوم وبالوبة وعلاسط وقلسة ، وبلّله ومكسله وسيزانية وجبل جيري الذي يوصف بانه مكان انتاج الاحجار الثمينة . ، ولكن مصدر بليني صعب التحقيق لعدم وجود مصدر آخر ننقح عليه هذه الأسماء ، ونتيجة لذلك وجدت اختلافات كثيرة في مخطوطاتنا المتنوعة . ولكن بعض هذه الأسماء يجب ان يعطى اذناً صاغية . فمدينة رابسة ربما تكون هي مدينة « غـات » ، وبون هي بونجيم ، وبراكوم هي براك . وفيما عدا هذه المدن الثلاث يمكننا تعليل البعض الآخر من الأسماء : فاسم نثابور يتطابق مع اسم شعب ذكر في مصدر آخر باسم النتابريون أو النثابريون . وكذلك يوحي تنوع قراءة اسم قبيلة النترية والنتبرية بان اسم مدينة نتبيروم هو شكل آخر من نفس الكلمة . وأخيراً نجد ان أحد المؤرخين وهو « أوروسيوس » يقدم لنا مفتاحاً لحل الألغاز عندما يذكر قوماً يعيشون الى الجنوب من منطقة طرابلس ويسمون جاتولي نثابري . ومن المحتمل ان يكون هذا الاسم إسماً بربرياً حقيقياً وأصيلا يدل على قبيلة ومكان اقامتها في نفس الوقت . ويمتد اتحاد جاتولي غربي منطقة طرابلس الحديثة ، إما الى منطقة جبال الأوراس بالجزائر أو الى الجنوب من ذلك . وحتى لو كان اسم « جاتوليان » يستعمل عند النثابريين كصفة جغرافية فلا بد ان ذلك يعني انهم كانوا يسكنون غرباً فيما يسمى اليوم الجزائر .



الشكل رقم ٢ : وادي الاجال – مع الاسماء الحديثة للاماكن

ومع ذلك تعتبر معظم أسماء بليني غير مؤكدة ، رغم أن هذا لم يمنع ، كما يبدو ، من التهور في تعريفها ونسبتها إلى المواقع الممتدة على طول وعرض الصحراء . فشعب فسيرة مثلاً قيل بان مكان إقامته يقع الى الغرب من تسيلي وأيضاً في بسكرة ، وان مدينة ثوبان هي طبونة ، وان سيلابة التي يقربها بليني من سيدامية (غدامس) عرفت بأنها مدينة زويلة القريبة من مرزق، بل ان المؤرخ هوني مضى الى حد قال فيه بأن نهر دسيباري يقع في النيجر .

أما آخر مؤلف كلاسيكي يستحق بعض الاعتبار في هذا الشأن فهو بطليموس الذي كتب في مطلع القرن الثاني بعد الميلاد. وكان بطليموس رياضياً في الاصل ، حاول وضع خطوط طول وخطوط عرض صحيحة ودقيقة لكل مكان هام أورده في أخباره . ولكن قيمة مصادره تتنوع ، وتغلب قلة الدقة على الأماكن والمواقع التي حددها ، وخاصة في المناطق الداخلية حيث يقع أحياناً في أخطاء غريبة . ومن بين المدن التي ذكرها في هذا الجزء الذي يعنينا من أفريقيا (شكل ٣) هي جلانوس وفانياس وساباي وبوتا وبديروم وعاصمة الجرمنتيين وطميثة ، وبعضها جرمنتية ولا شك ، رغم انه لا يبين على الأغلب ما يخص الجرمنتيين منها . وقد قيل بأن ساباي هي سبها ، وربما يكون هذا صحيحاً ، وأن فانياس هي بوين (بونجيم) . ولكن طبيعة وطريقة تقديم بطليموس للمعلومات تجعل من محاولة



الشكل رقم ٢ جزء من خريطة بطليموس تبين اراضي الجرمنتيين

تعريف المدن أمراً محفوفاً بالمخاطر . ونجد ، بالاضافة الى هذا ، ان بطليموس يشير مرتين إلى كلمة « فرانكس » الجرمنتية (وهي تعني الاخدود أو الوادي الضيق الشديد الانحدار أو الممر الضيق .) ويرى بيس ان هذه الكلمة ربما تعني «زنككرة» ولكن لا يبدو هذا الرأي صحيحاً لأن الكلمة تعني باللاتينية حلق أو أخدود أو ممر ، ويبدو ان كلمة فرانكس هي أقرب ما تكون للدلالة على وادي الآجال الضيق (الصورة رقم ٢ و ٣ ، والشكل رقم ٢) المحصور بين بحر الرمال في الشمال ، والجرف في الجنوب ، والذي ينعطف بين الأبياض وأوباري . والواقع ان الوادي يعتبر ممراً ضيقاً إذا ما قورن بالمناطق الواقعة شماله والواقعة جنوبه ، ولذا فان هذا الاصطلاح والاسم « فرانكس » يناسبه تماماً .

ومع ان أعمال الحقل غير قادرة تماماً على تعريف كل المدن المذكورة في قائمة بليني ، إلا ان هذه الاعمال المنجزت ما يمكن ان يبيِّن مدى اتساع المنطقة التي يفترض أنها كانت موطن الجرمنتيين وأرضهم . ونود في البداية ان نؤكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن وادي الآجال كان مهدهم ، وان عاصمتهم هي جرمة (الصورة رقم ١) . واذا كان « كبوتو » قد قدر وجود ٥٩٦٨٦ قبراً بين تين ابو ندة والابياض فان ما تم من ابحاث تالية يقدّر بان العدد الاجمالي للقبور ربما يكون في الواقع ثلاثة أو أربعة اضعاف العدد المذكور . وهنالك شاهد

يدل على وجود زراعة يانعة وواسعة في المنطقة وهو العثور على مئات الأميال من الفجارة وهي قنوات مائية تحت الارض تسير من الجرف إلى مركز الوادي ، وتمثل هذه المسافة معظم طول وادي الآجال بين الابياض وتين ابوندة. بل ان هذه القنوات تقترب أحياناً الى درجة كبيرة يمكن معها احصاء وعد ستين قنـاة في مسافة ستة أميال فقط ، وخاصة قرب الغرية كما يذكر الذين حفروا في تلك المنطقة .

ولكن وادي الآجال ليس إلا مركزاً لمنطقة من الوديان والواحات التي تشمل أيضاً وادي الشاطيء في الشمال ، ومنطقة وادي برقوق ومنخفض الحفرة في الجنوب . وتكوّن كل هـذه المناطق الاسطر الثلاثـة لواحات فزان ، والتي تسير من الشرق الى الغرب بين براري حمادة الحمراء وبحر رمـال أوباري وبحر رمال مرزق . (الشكل رقم ١ ، حيث يشار اليهـا بكلمات آدري ، وجرمة ، ومرزق – زويلة) . وقد عرفت الفجارة في الجنوب عند الطرف الشرقي لوادي برقوق وحول زويلة وطربو وام العدم في الحفرة الشرقية . وتوجد بكثرة المقابر المشابهـة للمقابر الموجودة في وادي الاجال ، والتي تحتـوي على الفخار الذي يرجع إلى زمن الرومان ، وفي الاماكن الاخرى حـول زويلة وفي غدوة وفي دوجال ووادي برقوق . ولا شك ان المواقـع الاخرى في الحفرة ووادي النشوة تنتظر الحفريات والاكتشافات . أما في الشمال في وادي الشاطيء فقـد كانت

الصورة رقم ٤ جبل زنككرة ، التحجرات الشمالية

الحفريات وأعمال الحقل أقل مما تم في المناطق الأخرى ، ولكن وفرة الماء هناك يؤكد بانهـا كانت احدى مواطن الجرمنتيين . فنبع دبري مثلاً يغلب الظن على انه في أدري التي يوجد بهـا منبع ماء ، ويحتمل جيداً ان يكون هذا الرأي صحيحاً .

تاريخ المنطقة

أما معرفتنا ومعلوماتنا عن تاريـخ الجرمنتيين فهي كذلك مشوبة بالشك . فرغم رجوع معلومات هيرودوت إلى القرن الخامس قبل الميلاد، لكنه يقدم لنا القليل منها عن الجرمنتيين. غير أن الاثار المعمارية التي ترجع الى ما قبل زمن هيرودوت قد اكتشفت في الكثير من المواقع بفزان ، ووجدت فيها أدوات حجرية تعـود الى زمن الثقافات الاشيولينية والاتيرية (من ١٠٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ ق. م) ، وما زال الكثـير من الآثار والمواقع في انتظار الكشف . وهنالك الكثير أيضاً من الصور والرسومات الصخرية ، رغم ان العلماء لا يرون انهـا تعود إلى زمن سابق للعصر الحجري الحديث . وقـد استنتج فورد ـ جونستون من آخر المكتشفات المتعلقة بتعاقب المناخ في شمـال أفريقيا فيما بعدالعصر الجليدي ،وذلك تأييداً لما قاله جرازيوسي ، ان جميع الاشكال المنقوشة في الفن الصخري ترجع إلى ما بعد العصر الحجري الاقرب (البلستوسيني) ، وان المرحلة التي كان يمكن ان تعيش فيها في ذلك العصر هي المرحلة الرطبة الواقعـة



الصورة رقم ٥ : سجين جرمنتي على موزايك زليطن



الشكل رقم ٤ : صيادون وعربات وثيران من لوحات تسيلي الجصية

بـين سنة ٥٥٠٠ إلى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، أي في منتصف العصر الألفي السادس ق. م. ، وهـذا هو الحد الأعلى للعصر البلستوسيني (رغم ان فورد – جونستون كان متأكداً من انها بدأت بعد بداية الفترة المطرية بقليل). وقد وافق آخرون على هذا الرأي ، رغم ان البعض رأى من الافضل القول بان ذلك كان في الفترة المطرية فيما بين سنة ٩٠٠٠ الى سنة ٣٠٠٠ ق. م. ، مع التبكير في اعتبار بداية العصر الحجري الحديث وفنه .

وكذلك ليس مؤكداً تاريخ وصول البربر إلى شمال افريقيا. والقول بان اقامتهم ، مكان سكان قدماء محليين على الحافـة الشمالية الشرقية ، بدأت ، كما قيـل مرة ، في العصر الألفي الثاني ، يمكن الآن الطعن فيه وارجاع هذه الاقامة إلى فـترة أبعد . وتبين التحليلات التي قام بها « حوا فتيح » في برقـة حدوث تغيرين هامين في انواع الادوات الحجرية التي تمثل تاريخاً ابكر بكثير ، ويمكن ان يكون هـو وقت وصول موجات متوالية من شعوب البربر .

والجرمنتيون ، كما وصفهم وسماهم هيرودوت وبليني والمؤلفون الآخرون من العصر الكلاسيكي ، هم بالتأكيد من البربر ، رغم احتمال ان الذين كانوا يصطادون وهم راكبين العربات ذات الخيول الأربعة يختلفون عن الجرمنتيين . ومهما كان التاريخ الحقيقي لوصول البربر فان أقدم موقع اكتشف للجرمنتيين حتى الآن – على سفوح زنككرة (الشكل رقم ٤) –

يرجع إلى ثقافة العصر الحجري الحديث ، ويمكن وضعه في العصر الألفي الاول قبل الميلاد (لأن التاريخ الدقيق غير ممكن في الوقت الحاضر ، وقد عثر على نماذج كربون – ١٤ ولم تظهر نتائج تحليلها حتى لحظة كتابة هذا البحث .)

أما أول مرجع كتابي مدون عن هذا الشعب فهو من وضع هيرودوت ، ثم حدثت بعده فجوة ، لم تسد بحـق حتى كتب بليني عن حملة كورنيليوس بالبوس ضد الجرمنتيين. وكانت هذه الحملة واحدة من سلسلة حملات تزعمها قادة أوغسطين على طول حدود الامبراطورية الرومانية مع الجزيرة العربية وافريقيا . وكان الرومان قبل ذلك قد وجهوا حملتين واحـدة الى الجزيرة العربية وأخرى إلى مصر ، ولكنهما احرزتا نجاحاً محدوداً ومشوشاً . أما حملة بالبوس ضد الجرمنتيين فقد حققت نتائج تختلف عن الحملتين السابقتين . فهي تميزت أولاً بانها جرت تحت قيادة قنصل أفريقيـا لوسيوس كورنيليوس بالبوس الأصغر ، وهو جندي قيصري مجرب جريء، وناجح ، وكان واحداً من عصبـة قيصر القليلة العدد ، واحرز انتصارات حية زمن أوغسطين . وسواء أعجبنا بالقليل مما عرفناه عن بالبوس ، أم تحمسنا للجرمنتيين أكثر من الرومان ، فاننا لا نملك إلا التأثر للاقدام والقوة والشجاعة التي حملت جيشاً من الساحل مسافة خمسمائة ميل (٨٠٠ كم) في الصحراء ، يعتمد بشكل كامل على عدد محدود من الآبار والمرشدين المحليين ، ثم أرجعته في

نظام جيد يحمل الاسرى والغنائم لتعرض للناس دليلاً وعنواناً للانتصار . وتدل قائمة بليني التي عددت الأماكن والاقوام والمدن المهزومة ان تلك الحملة لم تكن هجوماً بسيطاً ، ولكنها حملة دامت ما يقرب من فصل كامل ، لأن المسافة المقطوعة تحتاج الى مسيرة ثلاثة أشهر بمعدل عشرين ميلاً في اليوم (ومن غير المحتمل المحافظة على هذا المعدل في تلك الظروف الصعبة الشديدة الحرارة ، مضافاً الى ذلك الزمن اللازم للقتال والحصار والراحة وكل ما يحتاجه جيش في الميدان) . ومن المؤكد ان تتطلب رحلة العودة زمناً أطول بسبب حمل الغنائم والاسرى الجرمنتيين الذين لا بد وأنهم قاوموا وحاولوا عرقلة السير .

ولا يعرف بالضبط تاريخ هـذه الحملة ، ولكن بالبوس احتفل بعيد نصره ذلك في ٢٧ مارس سنة ١٩ قبل الميلاد ، وكان هو الاجنبي الوحيد ، وآخر مواطن خاص يقوم بذلك الاحتفال . ولأن تلك الحملة كانت الأولى من نوعها في زمن الرومان ، وإذا اعتبرنا المخاطر والصعوبات والشكوك التي تعرضت لها الحملة ، نجد ان انتصار بالبوس لم يتم بسهولة ، وظلت تلك الحملة ذات منزلة خاصة في اذهان الناس طيلة قرن تال من الزمن . وقد ذكرنا من قبل قائمة بأسماء المدن والقبائل المهزومة ، مع مشاكل تعريفها ، ولا حاجة للتكرار أو ذكر المزيد عن ذلك .

أما الحادثة التالية التي خلقت صراعاً بين الجرمنتيين وروما

فهي ثورة تكفريناس التي عكرت السلام بافريقا الرومانية من سنة ١٧ الى سنة ٢٤ بعد الميلاد. ويحدثنا تسيتوس ان الجرمنتيين كانوا يتسلمون الغنـائم ويشاركون روما في الغزوات ويقدمون للامبراطورية القوات ذات الأسلحة الخفيفة . وعند هزيمة تكفريناس الاخيرة التي أدت إلى موته ارسلوا مبعوثين إلى روما لتقديم الاعتذار عن تقصيرهم في مساعدة جيش الامبراطورية ، ولأنهم كانوا خائفين عند موت تكفريناس . ويبـدو ان الأمر انتهى عند ذلك الحد . ولكن المتاعب نشبت مرة أخرى بعد أربعين سنة ، فقد أصبحت لبدة وأوية (طرابلس) على وشك الدخول في حرب داخلية فيما بينها خلال الحرب الأهلية سنة ٦٨ — ٦٩ بعد الميلاد . ولما كان أهل أوية اقل عدداً فقد طلبوا ونالوا نجدة الجرمنتيين ، الذين وصفهم تسيتوس بانهم « قـوم لا يخضعون لأحد ، وينهمكون دوماً في مزاولة اللصوصية ضـد جيرانهم ، وقطـع الطريق عليهم » ، وكانت نتيجة ذلك أن اصاب الخراب منطقة لبدة وساق الخوف أهلها للاعتصام خلف الاسوار . وإذا علمنا ان جزءاً كبيراً من ثروة لبدة كان يأتيها من اشجار الزيتون ، تأكدنا ان مصيبة الدمار ستحل بدارها. وربما كانت تلك هي المناسبة الثانية التي هوجمت فيهـا لبدة ، لأن الرومان اضطروا خـلال الحرب التي واجهت تفكفرنياس الى وضع قواتهم لقطع الطرق « التي كان العدو يهاجم منهـا ويغزو لبدة ثم يلجأ الى الجرمنتيين » . ولكن القـوات الرومانية

الاضافية وصلت في اللحظة الأخيرة وهزمت الجرمنتيين واستولت على جميع مغانمهم « عدا ما باعه اللصوص للقبائل النائية أثناء تجوالهم في القرى التي يصعب اختراقها » كما يضيف تسيتوس . ولكي يعمل فاليريوس فستوس على اظهار مقدرته للامبراطور الجديد « فسباسيان » ، والانتقام للهجوم الذي حدث على مدينة لبدة الامبراطورية ، قام بالتوجه إلى الجنوب .. ويسجل بليني حدوث تغيرات في الظروف زمن هذه الحملة عما كان عليه الحال في الحملة السابقة ، « عندما كان من المستحيل شق الطريق إلى الجرمنتيين لأن عصابات اللصوص منهم كانت تغمر الآبار بالرمل — تلك الآبار التي لم تكن تحتاج إلى حفر عميق لو كانت عندك دراية وخبرة السكان المحليين . » وفي هذه المرة الثانية اكتشفت طريق جديدة مسيرتها أربعة ايام تسمى « عند رأس الصخرة » . وقد جرت مناقشات طويلة حول هذا الطريق ، والذي يفترض انه يسير مباشرة من الشمال إلى الجنوب ، ولكنه ما زال غير محدد بشكل قاطع . ومن المؤكد ، من ناحية أخرى ، ان أربعة ايام هي أقل بكثير مما يحتاجه الانسان لقطع المسافة في ذلك الوقت ، ومع ذلك يدل كلام بليني على ان طريقاً مباشراً افتتح منذ ذلك الحين بين المقاطعة الرومانية وبين الجرمنتيين .

وبيدو ان هذه الحملة أو الطريق الجديدة قد أحلت السلام بين الجرمنتيين والرومان . وكانت الحملتان التاليتان الى الجنوب

ذواتي طبيعة مختلفة عما سبق ، وقد سجلها بطليموس في ملاحظة هامشية . ففي الاولى قام سبتيموس فلاكوس ، الذي كان يترأس قيادة الفيلق الروماني الثالث حوالي سنة ٨٠ م ، بقيادة حملة اتجهت الى الجنوب وتجاوزت « جرمة » إلى اثيوبيا . أما في الثانية فقد سافر رجل من لبدة يسمى يوليوس ماتيرنوس جنوبي جرمة مع ملك الجرمنتيين ، ووصلا بعد أربعة أشهر . « بلداً في اثيوبيا يسمى أجسمبة ، حيث يتجمع حيوان وحيد القرن » وربما حدثت هاتان الرحلتان بعد سنة مائة الميلادية بوقت قصير ، أو قبلها بقليل . وقيل بان ابعد نقطة تم الوصول اليها هي تبستي أو بحيرة تشاد ، أو حتى النيجر . وما يزال الجدل جارياً حول هذه الاماكن المختلفة ، ولطوله رأينا حذفه من بحثنا هذا . ولكن من السهل معرفة الهدف من وراء هاتين الرحلتين : فمن المرجح ان تكون الثانية منها حملة مدنية سلمية بحثاً عن التجارة لا عن مكاسب عسكرية ، وربما كان للاولى أيضاً هدف تجاري من جملة أهدافها . والجدير بالملاحظة هو ان مجرد حدوث هاتين الرحلتين الطويلتين داخل أرض الجرمنتيين وبمساعدتهم وتعاونهم يدل على تغير في العلاقات مع روما ، وكذلك يبدو ان السلام تلاهما بشكل ملحوظ . ومع ذلك نرى ان الامبراطور سبتيموس سفيروس (وهو من مواطني لبدة) قد دعا في نهاية القرن الثاني الميلادي إلى إعادة تثبيت دعائم السلم « والامن الكامل لطرابلس بإلحاق الهزيمة بالقبائل

التي تعشق القتال » ، كما ورد في كتاب «تواريخ أوغسطين » .
ويعتقد بان الجرمنتيين كانوا من بين هذه القبائل ، لأن سفيروس أردف انتصاراته ببناء قلاع في بونجيم وغدامس وقرية الجربية الواقعة على الطرق الرئيسية المتجهة إلى الجنوب (الشكل رقم ١) .
ومن ناحية أخرى كان سفيروس ، كمواطن من لبدة ، شديد الحساسية تجاه أي شعور ، حقيقي أو غير حقيقي ، بقلة الأمن يشعر به سكان الولايات على طول الحدود الجنوبية ، وربما لم تكن القلاع موجهة ضد الجرمنتيين بشكل خاص .

ومنذ ذلك الوقت اسقط التاريخ أخبار هذه القبيلة إلا من اشارات قليلة . أما قطاع الطرق والمهاجون الذين عرفهم القرن الرابع والقرن الخامس فهم شيء آخر ، ولم يعد الجرمنتيون أكثر من اسم مترادف مع الحدود الجنوبية للعالم المعروف حينذاك .
ولا يوجد تأكيد على اشتراكهم في موجة الثورات العامة ضد الادارة البيزنطية في القرن السادس، ورغم ان كلاوديان يذكرهم بالاسم ، إلا ان لغته شاعرية للغاية ، بل ان الانسان يشك في واقعية كلامه ، لأنه يذكرهم في مكان آخر على أنهم قوم يشربون من مياه النيل ، الامر الذي لا يستبعد ان يكونوا فعلوه على أي حال . ولكن القبيلة ، من جهة أخرى ، كانت ما تزال موجودة بالتأكيد على شكل مملكة عندما وصلت الجيوش الاسلامية وفتحت فزان في الاربعينات من القرن السابع الميلادي .

وإذا رجعنا قليلاً الى الوراء ، لم نجد الكثير من الاخبار عن حملة فاليريوس فستوس على جرمة سنة ٧٠ م (لأن بليني يوحي فقط بحدوثها) ، أما تسيتوس فيذكر فقط بان الجرمنتيين قد انهزموا) ، ومع ذلك تبين الموجودات الأثرية ان الفخار الروماني والقناديل والزجاج وأوعية الخمر الرومانية بدأت تنتشر عند الجرمنتيين منذ حوالي سنة ٧٠ ميلادية ، وهذا يوحي بان مزيداً من الظروف السلمية بدأت تعم منذ ذلك الوقت، وان الجرمنتيين كانت لديهم أشياء احتاج الرومان اليها مقابل البضائع الرومانية من زجاج وخزف وغير ذلك . وقياساً بما اكتشف عن الامكنة الأخرى يمكن القول بان التجار كانوا هم السبب في وجود هذه التجارة ، وربما وجد منهم فريق يعيش في جرمة ، تماماً كما كان فريق آخر من هؤلاء التجار يذهبون الى مناطق نائية أخرى خارج حدود الامبراطورية الرومانية .
وقد ذُبح فريق من هؤلاء التجار في أورلينز أثناء تمرد فرسينجتوركس ضد القيصر ، وقُتل آخرون في « سرتا » و « فاجا » ، في حرب جكرثين باوروبا . وربما يشابه هؤلاء التجار اليوم تجار ورواد الغرب الى أمريكا الذين نزحوا اليها طلباً للثروة في القرن الماضي ، وفي كلا الحالتين كان هؤلاء المغامرون هم أول من يعاني أو يفقد حياته وقت المتاعب . وفي زمن الامبراطورية الرومانية كان الرجال الأثرياء ذوي المكانة المعتبرة غالباً ما يشاركون في تلك المغامرات ، وربما كان

سبتيموس فلاكوس ويوليوس متيرنيوس مثالين لهذا النوع من الرجال . ولكننا نجد تحت أيدينا شاهداً آخر يبين لنا أكثر من مجرد الاتصالات التجارية بين الجرمنتيين والرومان. ففي هذا الوقت أو بعده بقليل يبدأ البناء ذو الحجر المربع المنحوت في الظهور لأول مرة في منطقة جرمة . ومما يلفت النظر كذلك اناقة العمل المعماري وفنون القطع المبينة في انتاج وتصفيف الحجارة إلى درجة واضحة ومناقضة للجدران الحجرية الجافة الخشنة والطوب الطيني المستخدم سابقاً ، ومما يجعل من الصعب علينا تجنب الاستنتاج بان العمال المهرة من منطقة الساحل قد توجهوا للعمل في الوادي الجرمنتي (قارن الصورة رقم ١٠ بالصورة رقم ١١). ويمكن ان يعني هذا إما ان الامبراطورية الرومانية قررت أن افضل طريقة لتحويل الجرمنتيين إلى جيران مسالمين هي تحسين مستوياتهم المادية بشكل يجعلهم راغبين في العيش بسلام والتمتع بحياة أهنأ ، او يعني أن الجرمنتيين أنفسهم رغبوا في محاكاة أمجاد المدن الساحلية داخل عاصمتهم . ويؤيد الفرضية الاولى ما حدث في أواخر القرن الاول الميلادي من توصل الامبراطور دوميتيان إلى اتفاق مع الملك الجرمنتي ديسبالوس وامداده بعدد من الصناع والمعماريين والمهندسين ، الامر الذي أثار اشمئزاز بعض الرومان – وقد حدث فعلاً خلال خمسة عشر عاماً ان اضطر جيش تراجان الى مهاجمة الحصون الشديدة . ولكن يبدو ان العلاقات مع الجرمنتيين ظلت أفضل

رغم ما حدث ، ويوجد لدينا دليل في الوقت الحاضر يبين ان النشاط المعماري الذي عم وادي الآجال كان نشاطاً سلمياً بشكل كلي . ومهما كان السبب الكامن وراء هذا الظهور المفاجيء للمهارات والصناع الاجانب فمن الواضح وجود علاقات أوثق مما سبق بين الجرمنتيين وروما ، ويبدو تبعاً لذلك استمرار الظروف والاحوال السلمية .

ويتبين مما تم اكتشافه والحفر عنه كثرة الخزفيات الرومانية ، التي ترجع إلى القرن الثاني ، بشكل مدهش . أما الخزف الراجع إلى القرن الثالث فانه يختفي من المنطقة بشكل واضح ، وربما يدل هذا على تغير في الأحوال ناتج عن سياسة سبتيموس سفيروس . ولكن يجب ، في نفس الوقت ، الاعتراف بان السبب ربما يكمن أيضاً في عدم قدرتنا حتى الآن على التعرف جيداً على مميزات الخزف والاوعية الخاصة بالقرن الثالث وبنفس السهولة التي استطعنا بها تعريف خزف القرنين الاول والثاني الميلاديين .

ورغم المتاعب والقلاقل التي حلت بافريقيا في القرن الرابع، فقد تواصلت البضائع والسلع الرومانية المستوردة في السير إلى الجنوب ، بما فيها بعض من اجود أنواع الخزف الاحمر والزجاج المصنوع في تلك الفترة . وقد تم كذلك اكتشاف كمية معينة من المواد التي تنتسب للقرنين الخامس والسادس ، رغم ان معظمها استخرج من المقابر، الامر الذي يجعلنا غير متأكدين بعد

من المستوطنات التي عمرت في ذلك التاريخ المتأخر .

واخيراً ، يجب ان نقرر ان كل هذه الآثار لا تشكل دليلاً على خضوع الجرمنتيين للرومان في فترة ما من الفترات . وعندما نتأمل الطبيعة المرعبة الهائلة فيما بين قلاع الجربية – بونجيم – غدامس وبين وادي الآجال ، تتضح لنا أسباب العجز الروماني عن اخضاع الجرمنتيين ، (الشكل رقم ١) . ولو فعل الرومان ذلك لكانوا كمن يتلقى ويقبل دعوة مفتوحة للسير إلى مصيبة وكارثة ، لأن المحافظة على استمرار حاميات في الجنوب، تفصلها عن القواعد الأمامية هذه المسافة وتلك الصحراء ، شيء معرض للمهالك . فاقصر طريق بين الجربية وجرمة تمتد حوالي ٤٠٠ ميل ، ولم يكن في وسع أي قائد روماني محاولة الاحتفاظ بقواعد تبعد هذه المسافة وتحتاج إلى صيانة وحماية هذا الطريق الطويل الضروري لارسال الامدادات والمؤن . ومما يزيد في تأييد هذا الرأي خلو مناطق الجرمنتيين بشكل قاطع من حصن أو قلعة رومانية ، سواء اكانت دائمة أم مؤقتة . ومن المؤكد كذلك الا يكون الرومان قد عمدوا إلى خلاف ذلك من ترك حامياتهم وسط الجرمنتيين دون قلاع وحصون ، والا كانوا كمن يترك جنودهم كرهائن في يد الاعداء .

وعلى ذلك ، فان الصعاب التي وقفت أمام سير الرومان وغيرهم إلى الجنوب ، من جفاف المناخ وأهوال الصحراء وبعد

الطريق ، قدمت للجرمنتيين في التاريخ المبكر خدمة جليلة بحمايتهم من جميع الاقوام الأخرى . أما في الأزمنة التالية من حياة الجرمنتيين فقد بقيت المميزات الطبيعية لمنطقتهم ، من وديان وواحات فيما وراء الحاجز الصحراوي ، تحفظهم من أي فرص للاندماج داخل الامبراطورية الرومانية .

علم الانسان والعادات

يخبرنا المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت بان الجرمنتيين كانوا « أمة بالغة العظمة » ، ومن حيث الميزات الجسمية والصحية فاننا « في الواقع لا نعرف أحداً اكثر صحة وحيوية من الليبيين » . هذا ما كتبه هيرودوت في مؤلفه « التاريخ » . أما من حيث الجنس والعنصر فيعتبر الجرمنتيون من« الحاميين» (نسبة إلى حام بن نوح عليه السلام) ، ولكننا إذا تطرقنا إلى تفصيلات أخرى وجدنا أنفسنا مقيدين بنتائج بعثة بيس – سيرجي – كبوتو ، رغم ان ما درسه سيرجي لم يزد عن ثمانية وتسعين هيكلا عظمياً . ويضاف إلى هذا كذلك نتائج دراسة الصخور والفنون القديمة ، وما قاله المؤلفون القدماء ، ومقدار معتبر من البحث الحديث .

يرى سيرجي ان الجرمنتيين هم أقرباء للطوارق ، وسماهم بيس جنساً أبيض من سكان حوض البحر المتوسط ، مع ميل الى السمرة . وكشف سيرجي ، بالاضافة إلى ذلك ، عن وجود

بعض الزنوج ، أو المميزات الزنجية ، التي بدت عندهم في الأزمنة الرومانية ، ولكنها لم تصبح ذات أهمية إلا في زمن متأخر . ولكن هذه النظرة قوبلت بالتحدي من جانب آخرين، وخاصة فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة(١) . ولكن الواقع ان كثيراً من الآراء ربما تكون قد بنيت على قليل من بينات علم الانسان ، وهي تفتقر في الغالب إلى التأريخ الدقيق ، ولا بد من اجراء دراسة جديدة تشمل مجموعة المواد التي تنتقى بعناية . ولكننا، من ناحية أخرى، لا نقلل من العمل الرائد الذي قام به سيرجي ، والذي ربما يكون صحيحاً بشكل أساسي .

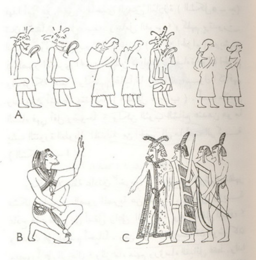
وتهمنا من الناحية التصويرية تلك الصور الجصية الجدارية التي ترجع الى الفترة البوفيدية وفترة تسيلي (وخاصة فترة العربات وما تلاها) ، بالإضافة إلى مادة مماثلة من مناطق أخرى . وتتنوع الانماط والاشكال الجسمانية الممثلة في هذه الصور من صور لآلهات رفيعة نحيفة تشبه الطير على الشكل المصري ، إلى صور لصيادين أقوياء صغيري الرؤوس يؤلف كل ثمانية مجموعة في صور بالغة الجمال والاناقة لشباب وشابات، الى صور زنجيات ممتلئة الاجسام مزينات بالوشم . وهنالك صور لاجسام بيضاء غريبة ومزينة في بعض الاحيان بالالوان أو

(١) يرى الكثير من العلماء والمؤرخين ومنهم العرب بشكل خاص بأن أصل الجرمنتيين والطوارق يرجع الى قبائل هاجرت من الجزيرة العربية في عصور سابقة ، ويأتون بادلة كثيرة لا مجال هنا لسردها .

الوشم . ويمكن أن توجد بين كل هذه المناظر والاشكال مناظر وانماط جرمنتية ، ولكن بشكل محير لكثرتها ووفرتها إلى درجة يصعب معها التأكد من مناظرهم وانماطهم . وبين الشكل رقم ٤ مناظر ترجع للازمنة المتأخرة فيها محاربون ومركبات وثيران ، ربما تمثل الجرمنتيين . ومما هو غير مؤكد كذلك ما قاله الكتاب من أن قبيلة الجرمنتيين هي نفسها قبيلة الطوارق ، أو هي شعب من وسط الصحراء ، أو انها أقرب ما تكون إلى بربر البحر المتوسط ، أو انها من قبائل التبو . (ويرى هندرسون في كتابه « الاصل النوبي » بأن الجرمنتيين ، أو الجووان ، أو تدة ، هم جنس اسمر ولكنهم حاميون بشكل أساسي ، وكانوا يتمركزون على جبال تبستي ، وانهم متنقلون بطبيعتهم .)وقد عرّف آخرون قبائل التبو بأنهم هم الجرمنتيون ، أو الاثيوبيون الذين كانوا يتعرضون للاسر على أيدي الجرمنتيين الراكبين فوق مركباتهم (عرباتهم) ذات الخيول الاربعة . وهذا ما يبدو أكثر احتمالاً في الظاهر .

وإذا أردنا الحديث عن عادات الجرمنتيين الاجتماعية وأعرافهم أمكننا إضافة المزيد على ما قيل من قبل في هذا الشأن والغريب ان معظم المؤلفين القدماء يتحدثون عن الاختلاط والتشوش والاتصال الجنسي الغير شرعي بين قبائل أفريقيا . فمثلا ، يقول هيرودوت : « يوجد عند النسمونيين زوجات كثيرة لكل رجل ، واتصالهم بالنساء غير شرعي ،

ونساؤهم ، كما هو الحال عند الجندينيين ، تلبس عدة خلاخل جلدية ، لأنهن يضعن خلخالاً عند الاتصال الجنسي بكل رجل . » ويقول ميلا : « والجرمنتيون لا يجرون مراسيم زواج ولكنهم يعيشون مع أزواجهم عيشة مختلطة لدرجة ان اطفالهم لا يعرفون آباءهم ، كما لا يعرف الآباء أطفالهم . » هذا النوع من الملاحظات هو من قول مؤلفين رومان ويونان كانوا معتادين على الزواج الاحادي والاقتصار على زوجة واحدة . وربما يدل ذلك الكلام ، كما يشير بيتس ، على سوء فهم لنظام تعدد الزوجات عند القبائل الليبية ، وهو أمر يختلف بشكل أساسي عن نظام الاتصال الغير شرعي بالنساء . ويشهد على صحة وجود نظام تعدد الزوجات عند الليبيين ما تبينه المخطوطات المصرية ، وما اجاب به المراكشيون (أو البربر) القائد البيزنطي « سليمان » عندما هدد الرهائن الموريتانية التي كان يحتجزها قائلاً : « ان عليكم انتم الذين لا تستطيعون حيازة أكثر من زوجة واحدة ان تعتنوا بأطفالكم . » فردوا عليهم قائلين : « اننا نحن الذين إذا رغبنا في أكثر من زوجة حتى الخمسين زوجة للرجل الواحد، لا نخشى إهمال اطفالنا . » – كما يقول بروكوبيوس في كتابه « حرب الوندال » . وربما كانت العادة الاجتماعية عند الجندينيين من لبس النساء لخلاخل الجلد ، شبيهة بعادة « أولاد النيل » ، حيث كانت الفتيات تكتسب مهوراً أو هبات من البغاء قبل الزواج ، وإذا كان الأمر كذلك فانه يعني اعطاء النساء مقداراً



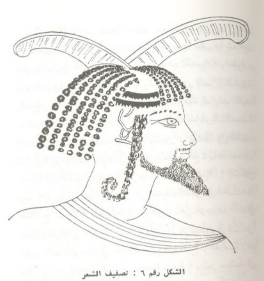
الشكل رقم ٥: الجرمنتيون بعد بيتس. أ. الزعماء وعائلاتهم. ب: محارب ج: زعماء وأتباعهم.

وافراً من الحرية. ولهذه الحرية مظهر آخر يبدو على الآجر المزخرف المأخوذ من مدينـــة هابو بمصر، حيث تلبس المرأة ملابس الرجل. وتبـــدو النساء الليبيات على النحوت البارزة الموجودة في أماكن أخرى بمصر في ملابس غنية الزخرفة مثل الرجال، وتلبس النساء في بعض الاحيان «الكرنكة» (وهي غطاء للاعضاء التناسلية).

وليس لدينا سبب أو برهان يجعلنا نعتقد بأن الجرمنتيين، فيما يخص الملابس، كانوا يختلفون بشكل اساسي عن القبائل الأخرى (الشكل رقم ٥). وقد سميت هذه القبائل عند المؤلفين اليونان والرومان «الجرمنتيون العراة»، كما قـــال «لوكان» في كتابه «فرساليا». ولكن الشواهد والأدلة الاخرى توضح ان الأمر لم يكن على تلك البساطة، ويوافـــق المؤلف «لوسيان» على هذا عندما يصف الجرمنتيين بأنهم يلبسون الملابس الخفيفة. أما الرجال ذوي المكانـــة الخاصة فكانوا، للتمييز، يرتدون الثياب الطويلة المفتوحة من الامام والمثبتة على الكتفين (الشكل رقم ٥ – أ – ج). وفي المـــدة الاخيرة أصبحت هذه الملابس من القماش المثبت بأشرطة ذهبية، ولكنها كانت في الازمنة المبكرة تصنع بالتأكيد من جـــلود الاسود، والفهود، والدببة، واحياناً تكون ذات أهداب على اطرافها. ومما يؤيد هذا وجود أجزاء وقطع من هذه الملابس الجلديـــة والقماشية في مقابر الجرمنتيين. وكانوا، من وقت لآخر، يلبسون

فوق هذه الثياب عباءات فضفاضة ، ويلبسون تحت الثوب إما سترة قصيرة مثبتة عند الخصر وتمتد الى الركبة أو لا يلبسون تحته شيئاً إلا مجرد حزام يتدلى منه جزء مزخرف يغطي ويحمي الاعضاء التناسلية (الشكل ٥ – ب) ، وهو المسمى بالكرنكة أو (غلاف القضيب). أما عن مدى اتساع وشيوع لبس العباءة فهذا أمر غير محقق ، فاحدى الرسوم البارزة (الشكل ٥ – ج) تبين زعيماً وحامل سيفه وحامل القوس ، وكلهم يرتدون العباءة ، ولكن التابع الثالث عاري (إلا من الحزام). ويشيع في الصور الاخرى المحاربون الذين لا يلبسون العباءة، وانما الحزام والكرنكة فقط ، ولكنهم غالباً ما يضعون حول اكتافهم وصدورهم أشرطة متقاطعة (الشكل ٥ – ب) . أما ملابس النساء فهي أقل وضوحاً ، ولكن الثوب الشائع عندهن هو ما يشبه التنورة الطويلة المتدلية من الخصر إلى ما تحت الركبة (الشكل ٥ – ا) .

ويمكن ملاحظة عادتين أخريين : الأولى هي الوشم، وتظهر بشكل واسع في الصور المصرية عن الليبيين . ويمكن رؤية نماذج لها بوضوح على أسفل واعلى الذراع ، وعلى اسفل الساق ، وكذلك على الجسم أحياناً . ومن المؤكد تقريباً ان الوشم كان مقصوراً على الرجال ، وللزعماء منهم ورؤساء القبائل فقط. ولذا نرى في النحت السابق انه الزعيم فقط هو الموشم ، في حين لا نرى وشماً على أي من اتباعه الثلاثة (الشكل ٥ – ج) .



الشكل رقم ٦ : تصفيف الشعر

الشكل رقم ٧ : زنكغرة مخطط لمنازل الجرمنتيين الاولى

والعادة الثانية هي تصفيف الشعر . ويخبرنا سترابو ان رجال احدى القبائل الموريتانية « تعتني بتحسين مظهرها بتضفير شعورها وتزين لحاها ، ولبس الزخارف الذهبية ، وتنظيف الاسنان وتقليم الاظافر . » ولكن الصور المصرية البارزة والمصادر الاخرى توضح وتبين بجلاء ان هذه العادات كانت منتشرة بين الليبيين على وجه العموم . وتبين المناظر الشائعة الرجال بلحاهم الصغيرة المدببة وشعورهم الممشطة إلى الخلف فوق رقابهم، وتجدل احياناً على شكل ضفائر صغيرة ذات اهداب متدلية الى الامام ، ولهم مناظر جانبية مميزة للغاية . (الشكل رقم ٦) . ويرى هذا الطراز من تصفيف الشعر على احدى صفائح الموزايك المكتشفة في زليطن ، وهي موجودة الآن في متحف طرابلس ، ويقال بانها تبين اسرى جرمنتيين عرضوا للحيوانات المتوحشة في حلبة الصراع الرومانية (اللوحة رقم ٥) . ويتبين للضحايا فيها لحى صغيرة مدببة ، وشعر ممشط الى الخلف في ضفائر صغيرة مجدلة في منظر جانبي . ويمكننا ان نتبين في هذا الطراز من الشعر الصفة الحقيقية المميزة للجرمنتيين رغم انها لا تقتصر عليهم — لأن الاختلاف في تصفيف الشعر بين مختلف القبائل كان أمراً ملاحظاً عند قدماء المؤلفين الذين يخبروننا انه كان يمكن في حالات كثيرة تعريف قبيلة من طراز شعرها المميز . وقد قال بيتس «بان نساء ادرماشيدا يتركن شعورهن كي تنمو طويلاً » ، وان قبيلة مكاي تترك الشعر « في

قمة الرأس ينمو ويطول بينما تقصه فيما عدا ذلك بحيث يشبه الهلال » . أما افراد قبيلة ماكليز واوسين « فيتركون الشعر يطول ، ولكن ماكليز تدعه ينمو خلف الرأس ، بينما ينمو عند أوسين الى الامام . » أما قبيلة ماكسي فتترك الشعر يطول على الجهة اليمنى من الرأس وتحلقه على الجهة اليسرى. » وهذا النوع الاخير من الشعر هو الذي يشاهد على الاغلب في الآثار المصرية. ومن المظاهر الشائعة الاخرى لبس ريش النعام على الشعر . وتبين النقوش المصرية المأخوذة من وادي الآجال ان هذه الصفة كانت مميزة عند الجرمنتيين ، رغم انها لم تقتصر عليهم ، لأن النقوش المصرية البارزة مثلاً تبين من آخر لآخر اشخاصاً ليبيين وعلى رؤوسهم ريش طويل، وتبين النسامونيين وهم يضعون جناح طير عال على رؤوسهم ، كعلامة على السفر . (كما يقول هاين في كتابه « آثار طرابلس . »)

ويمكن ، اخيراً ، ان نضيف كلمة عن ديانة الجرمنتيين . الواقع اننا نعرف القليل عن عقائدهم وطقوسهم إذا اردنا تقصي ذلك بشكل محدد ومفصل ، ولكننا نستطيع ان نذكر شيئاً عن معتقدات وعادات القبائل الليبية الاخرى ، آخذين بعين الاعتبار انه لا يوجد دليل على ان معتقدات الجرمنتيين وعاداتهم الدينية كانت تختلف عنها بشكل كبير . فالنسامونيون كانوا يزاولون الكهانة بالذهاب إلى قبور اجدادهم حيث يصلون ثم ينامون ، ويعتبرون ان أي حلم يرونه في منامهم هناك هو قول

وحي وكهانة (كما يقول هيرودوت) . ويسجل « ميلا » نفس الشيء عن سكان هجيلة ، وهي احدى واحات النسامونيين . ويذهب اوريك بيتس الى أبعد من هذا فيؤكد على ان تلك « الطقوس الشائعة بين الكثير من قبائل البربر اليوم كانت مقتصرة على الجرمنتيين وحدهم . » ويقول بان نساء « غدامس » ونساء « أصفر » من وادي عجيدات ما تزال تزاول هذه العادة . (كتاب شرقي ليبيا) . وربما كان القبر الغير عادي الموجود إلى القريب من ضريح جرمة في وادي الآجال ، ذا الردهة الملحقة بوجهه الاساسي (الشرقي) ، يستعمل لهذا الغرض – كما افترض كبوتو في كتابه « سكاني » اللاتيني .

أما بخصوص آلهة محددين فيسجل هيرودوت بان البدو (من الليبيين المنتشرين غرباً حتى شوت (جريد) لم يقدموا القرابين لآلهة سوى الشمس والقمر: « وكانوا في التضحية يقطعون جزءاً من اذن المضحى به لأول الثمار ويلقونه فوق المنزل ، وعندما يفعلون ذلك يلوون رقبة الاضحية . » وإذا كانت لدينا الشواهد القليلة عن عبادة القمر فان لدينا الكثير منها عن عبادة الشمس . ويذكر ابن خلدون في « كتاب العبر » بان البربر كانوا يعبدون الشمس في الازمنة المبكرة ، وتوجد فعلا آثار تصويرية وكتابية عن عبادة الشمس . ولكننا نعرف شيئاً عن إله شمس يبدي نفسه على صورة ثور . ويخبرنا الشاعر اللاتيني المتأخر كوريبوس بان الليوثيين عندما تقدموا لمحاربة

البيزنطيين كانوا يحملون معهم إلههم الثور جورزيل ، بينما يسجل البكري من القرن الحادي عشر بان الكثير من القبائل الطرابلسية ، ومن بينهم قبيلة الحوارة ، كانوا يتضرعون بالدعاء لصنم من الحجر يرتدي الملابس من أجل حماية ماشيتهم ، وكان هذا الصنم يوضع على قمة تل ويسمى « غرزة » . وربما كان اسمه هو نفس اسم بلدة قرزة الموجودة حالياً في وادي زينب. وكانت قرزة أيضاً اسماً لمدينة (واسمها الآن كالة الكبيرة وهي على مسافة قصيرة إلى الشمال الغربي من سوسة الحالية .) وربما تكون هي « قورزة » التي يذكرها بطليموس أو قرزة التي يذكرها بوليبيوس ، وربما تكون قبيلة القوزاري التي ذكرها هيرودوت هي مجموعة من المنازل أو منطقة تحمل اسم نفس الآله . وهناك صخرة منحوتة ذات صور في داية ديب (٣٠ كيلومتراً جنوبي مزدة بوادي مرسيت) تبين ثوراً ضخماً يحمل الشمس بين قرنيه على طريقة الاثوار الشمسية المصرية . ويجب ان نذكر أخيراً بان الليبيين يوشمون البقر بشكل عام ، ويقوم بهذا العمل بشكل خاص نساء شحات وبرقة . وإذا نظرنا إلى جميع ما ذكرناه نرى ان من الصعب القول بأن الجرمنتيين أصحاب الاثوار التي ترعى العشب وهي تسير الى الخلف يمكن ان يكونوا قد عبدوا هذا الإله الثوري .

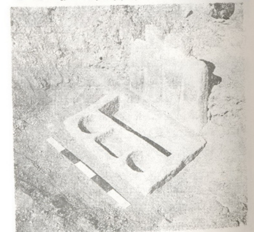
وعندما نأتي للحديث عن عادات الدفن فاننا نقف هنا على أرض اكثر صلابة . فالكثير من القبور الموجودة في وادي

الآجال انما هي عبارة عن أكوام من الحجارة البسيطة، أو أضرحة ليس فيها حاجيات مما يوضع في القبور . والمدفونون فيها لا توابيت تضمهم ، وأجسامهم عموماً تأخذ شكل الانحناء أو الجثو ، لا التمدد . وتتناثر الكثير من أكوام الحجارة، التي ترجع الى ما قبل زمن الفخار الروماني ، على المنحدرات السفلى من الجرف على شكل نقاط ، كل واحدة مستقلة في مكانها وندر ما تعتدي على جاراتها . وأكثر هذه الاكوام تطوراً هي ما يسمى « كاوشت » ، وهي موجودة بكثرة في الصحراء الحديثة، وتمثل بوضوح قبور البربر . ولا يوجد بداخل الكثير من القبور أمتعة واواني ، رغم ان في بعضها صحون حجرية مجوفة بشكل غير مستساغ ، وألواح حجرية رقيقة قائمة وموضوعة مقابل الوجه الخارجي الشرقي للقبور (الصورة رقم ٦) . وتوجد ، في حالات قليلة ، أواني مستوردة أو مصنوعه باليد ، بدلاً من الصحون الحجرية داخل القبور .

أما المقابر التي تحتوي على قطع فخارية ترجع إلى زمن الرومان — وهي غالباً عبارة عن فخار خزفي جميل وزجاج من نوع جيد — فهي على العموم أكثر تماسكاً ، وتقع أحياناً على أسفل الجرف واحياناً في مركز الوادي . وفي هذه القبور توجد الشواهد وموائد القرابين المشهورة والمميزة التي كانت توضع عموماً على الجانب الشرقي من القبر (الصورة رقم ٦) . وكان يتم الدفن بحيث يكون وضع الهيكل العظمي جاثياً احياناً وممتداً احياناً اخرى . ولم يعثر إلا على حالتين من حالات



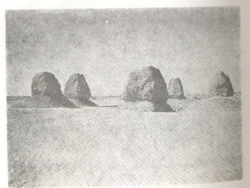
الصورة رقم ٦ : ـأـ قبر مبكر له بلاطة تذكارية



الصورة رقم ٦ ـ ٢ ـ قبر يرجع لعصر الرومان له شاهد ومنصة قربان



الصورة رقم ٧ : ١ - مربض مدرج في مقبرة



الصورة رقم ٧ : ٢ - اهرامات من الطين في مقبرة الحظير

حرق الموتى قرب ما يسمى ضريح جرمة ، حيث وجد رماد رجل وامرأة موضوع في امفورتين (الامفورة هي قارورة يونانية ضيقة العنق مستطيلة الشكل) قرب اسفل الضريح ، كما يقول كبوتو .

وتتنوع وتختلف قبور أكوام الحجارة في المقابر التي وجد بها فخار يرجع للتاريخ الروماني . اما الشائع منها فهي الاضرحة منتظمة البناء،ولكن الدفن يتم أحياناً في قبر بسيط غير عميق، لا يميز إلا بالشاهد (اللوحة الحجرية) والمائدة ، دون وجود أي ضريح عليه . وتستمر قبور الكاوشت في هذه الفترةوتشاهد الشواهد التذكارية الكبيرة من نوع مشابه ، وهذه النصب هي عبارة عن « كاوشت » ذات أدوار عليا مدرجة (وتسمى احياناً بالمصاطب او الاهرامات المدرّجة) ، تغطي ممراً رأسياً او حجرة ذات دعائم بسيطة تحت مستوى الأرض (الصورة رقم ٧) . أما بالنسبة للمقبرة الملكية الشهيرة بجرمة - ويسميها كبوتو « النصب التذكارية لمدينة الموتى » - فان النصب التذكارية المدرجة فيها كلها مبنية من الحجارة الغير مصقولة ، ملصقة بالملاط الابيض ، وتوجد موضوعة فيها موائد الاضحيات والايدي على منصات منخفضة مقابلة لاوجهها الشرقية .

وتشتهر المقابر من هذا النوع ، وهي التي تضم أحياناً عدة مئات من القبور ، في بلدان زويّة ورقيبة وتقلت وجرمة . وقد لوحظ وجود مقابر مدرجة صغيرة منفردة في المقابر

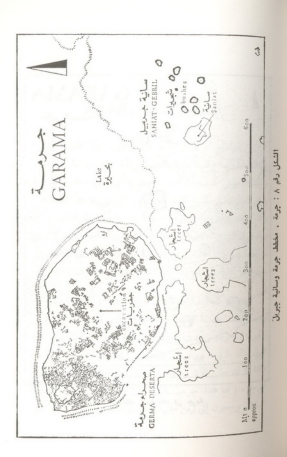


الصورة رقم ٨ : قصر وطوط من الجهة الشمالية الغربية
(الموزاليوم)

المعتادة بزنكاكرة وطواش وقريق . ولا شك ان مواقع كثيرة أخرى من هذا النوع تنتظر الاكتشاف .

وتعرف في ليبيا ثلاث مقابر ذات اهرامات حقيقية ، وتتكون من أبنية إهرامية ذات اربع جوانب مبنية من الطوب الطيني الصلب الغير مصقول ، مبنية فوق القبور . وتوجد إحدى امثال هذه المقابر عند اسفل جرف قريق ، واكتشفت مقبرتان اخريتان سنة ١٩٥٩ قرب « الحطير » في مركز وادي الآجال (الصورة رقم ٧) . وتوجد أيضاً بالقرب من مركز الوادي مقابر على شكل ممرات تحيط بها منصات منخفضة مبنية من الطوب الطيني وتشبه في الغالب المقابر المدرجة من نوع المقابر الملكية . وقد وجدت مقبرة من هذا النوع في « غدوة » واخرى في طواش بوادي النشوة .

والمثال الأخير لأنصبة الدفن التذكارية هو ضريح قصر وطوط الرومانتيكي الخيالي الشهير (الصورة رقم ٨) . وكان هذا الضريح يعتبر منذ وقت قديم مثالاً وحيداً لتغلغل الرومان في الصحراء ، ولكن الحفريات المتأخرة أثبتت بانه المثال الباقي الوحيد من خمسة أضرحة من نوعه ، على الاقل ، وتقع كلها بجوار جرمة . أما الاضرحة الاربعة الأخرى فقد سرقت الابنية من فوقها ولم يبق منها إلا الدرج ، (الجزء المركزي من المنصة) . وتختلف هذه الاضرحة عن تلك الموجودة في المنطقة الواقعة شمالي الصحراء ، في انها لا تحتوي على غرفة دفن



الشكل رقم ٨ : جرمة ، مخطط جرمة وسانية جبريل

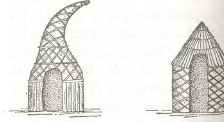
أساسية (بالقاعدة) ، ولا على ضريح تحتها . ولا توجد كذلك أي دلالة على غرفة دفن فوق سطح الأرض في ضريح قصر وطوط . ويبدو ، فوق ذلك ، ان لكل هذه الاضرحة قواعد مدرجة ذات منصات صغيرة على جوانبها الشرقية، وربما وجدت لها أسقف ذات مثلث عند أعلى واجهتها. وبهذه العناصر الرئيسية تصبح الاضرحة جميعها مختلفة عن كل الاضرحة الموجودة في المستوطنات الزراعية المستقرة الموجودة شمالاً فيما قبل الصحراء. وبدلاً من ذلك تبين اضرحة المستوطنات الزراعية تأثير استخدام الفن المعماري الروماني الكلاسيكي في النوع النوميدي من الاضرحة الموجودة في تونس واجزاء من شرقي الجزائر ، والتي ربما تبدو على احسن وجه في الطابق العلوي من ضريح دوجة الشهير . ويعتبر تعديل الهرم ذي الجهات الاربعة الى سطح ذي واجهة مثلثة عملا رومانيا رومانيكياً نموذجياً . ويجب ان ينظر الى هـذا التغير كدليل آخر على نشاط المهنيين المهرة من الرومان في جرمـة . والواضح من ناحية اخرى ان الابنية التذكارية بالآجال ليست أضرحة حقيقية ، لأنه لا توجد بأي منها أو تحت أرضيتها غرفة للدفن . ولكن يبـدو ان المقابر المحيطة بها تشهد على طبيعتها الخاصة بالدفن ، بينما يتضح ان حرق الجثتين الموجودتين بالامفورتين المذكورتين سابقاً كان شيئاً خاصاً بقصر وطوط . ولم يزل غـير مؤكد تاريخ هـذه المباني التذكارية ، ولكن يحتمل جيداً ان ترجـع الى أواخر القرن الأول أو الى القرن الثاني الميلاديين .

الشكل رقم ٩ : مخطط الحفريات في جرمة

التنظيم والسكنى والاقتصاد

من الواضح ان نظام الحكم عند الجرمنتيين كان ملكياً ، كبقية الاوضاع السائدة في العالم في ذلك الوقت بصفة عامة . ويصف بليني كيف أن أحد الملوك قد رجع من منفاه برفقة وحراسة مائتي كلب كانت تحارب كل من يتصدى لمقاومته . وقد سافر بوليوس متيرنوس جنوباً بصحبة أحد الملوك الجرمنتيين ويقول ابن عبد الحكيم بان أحد ملوكهم المتأخرين ، وكان في موقف حرج وحساس ، قد أجبر على السير على القدمين الى معسكر عقبة بن نافع بعد الاستسلام للمهاجمين العرب .

ومن المؤكد ايضاً ان عاصمة الجرمنتيين هي مدينة جرمة ، وموقع هذه المدينة القديمة هو الآن في وادي الآجال (الشكل رقم ١) ، وقد وجدت زمن الجرمنتيين مدن أخرى غيرها ، كما تبين قائمة بليني . ورغم تعريف بعضها والحاقها بالمدن الجديدة ، فانه تأكد حتى الآن وجود مدينة واحدة ، وأخرى محتملة الوجود (فيما عدا جرمة نفسها) ذات آثار طبيعية حقيقية لسكان يرجعون إلى زمن الجرمنتيين. ويبدو من تأمل الآثار التي



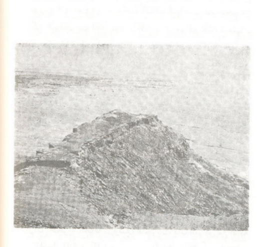
الشكل رقم (١٠) أكواخ الاسفودل (مباليوم)

اكتشفت فعلاً بان من غير المحتمل ان يكون شعب الجرمنتيين قد عاش فعلاً حياة بدوية متنقلة ، رغم اعطائها هذه الصفة من وقت لآخر . ذلك لأن الجرمنتيين كانوا يستقرون على الوديان ذات المياه الوفيرة ، وتحيط بهم وتحصرهم وتحد من حركتهم الحمادة الحمراء والسرير وبحر الرمال . وقـــد وجدوا هناك في أرضهم مراعي أفضل لماشيتهم من أي مكان آخر . أما ما يقـــال عن الجرمنتيين من سفرهم الواسع البعيد والغزو ، كما سجل ذلك عنهم الكثير من قدماء المؤرخين ، فانما يسهل الرد عليه والقول بان تلك النشاطات تختلف تماماً عن البداوة والتنقل وعدم الاستقرار. ثم ان الغزو والسفر كان من طبيعة الحياة عند مختلف الأقوام في تلك الازمنة ، خاصة وأن الجرمنتيين كانوا قوماً مغامرين .

وإذا كانت المنطقة التي عاش فيها الجرمنتيون هي حقـــاً بتلك الضخامة والاتساع ، كما ذكر سابقاً وكما قال بليني ، فان مملكتهم ربما كانت نوعاً من الاتحاد الكونفدرالي ، كما يبـــدو الحال مع قبائل الجاتولي إلى الغرب من الجرمنتيين . وربما وجد اتحاد ضم القبائل الاربع أو الخمس التي ذكرها بليني (رغم عدم التأكد من انهـــا جميعها جرمنتية) وربما وجدت في هذه الحالة رئاسات أو ارستقراطيات في وحدات القبائل المتحدة ، وقـــد ذُكرت سابقاً عادات هؤلاء الارستقراطيين النبـــلاء . ولكن بعض المؤرخين مضى الى حد الاعتماد على القياس التمثيلي بشكل قوي بالنسبة للطوارق وشعوب البربر الأخرى لكي يقيم بنـــاء

المجتمع الجرمنتي وتنظيمه على اساس نفس النوع من الزعامة ، حيث نظام حكم الانثى القوي . ويذكر بيتس في كتابه « الليبيون الشرقيون » بانه ، كما كان الاوسينيون يفعلون من عقد مجلس كل ثلاثة اشهر يضم جميع اعضائه من الرجال الناضجين، « كذلك اصبحت تلك العادة القديمة تجد لها اليوم مثيلاً بين قبائل اموشاغ واتحادات الصحراء، كما فعل البربر مثلاً بانشائهم « الاتحاد الاصفر » وقد أصبحت حكومة الصحراء البربرية مميزة وعميقة الجذور الى حد يجعلنا نعتبر ذلك النوع من الحكم شيئاً يصلح فعلاً للمحاكاة والتقليد من حيث مميزاته الرئيسية . » وتنقسم هذه المميزات الى نوعين : احدهما ارستقراطي والآخر خاص بالاشخاص والناس التابعين للاسياد . وكانت الحكومة ، التي يسيطر عليها نوع من الملكية الاقطاعية « تصطبغ بتلك الروح العميقة الجذور من التضامن والمشاركة الموجودة بين شعب البربر كله . » أما الخلافة في الحكم في تلك الملكية ، « والتي كان يتحتم أقرارها من قبل زعماء مختلف القبائل » فلم تكن وقفاً على ابن الملك الذي يموت ، بل انها من حق ابن اكبر اخت لذلك الملك » ، كما يذكر بيتس في نفس كتابه السابق . غير ان تاريخ الجرمنتيين لا يوضح لنا هذا النظام من الحكم ، ولا نجده أيضاً في علم الآثار حالياً . ورغم الافتراض بتشابه نظام الحكم الذي ذكرناه مع نظامهم إلا ان هذا الافتراض ينبغي ان يبقى خاضعاً للتأمل والدرس .

وعندما نتفحص وننظر إلى الآثار المادية الطبيعية للاماكن التي سكنها الجرمنتيون نجد المزيد من الشواهد والادلة . فجرمة تقع في مركز الوادي ، ولكنها لم تكن أول مكان أقام به الجرمنتيون ، لأن قلعة زنككرة البارزة هي أول حصن لهم (الصور ٤ ، ٩ – ١١) . وقد اكتشف فيها عدد ضخم من المساكن ، واجريت الحفريات الكثيرة في مواقع مختارة منها . وبينت هذه الحفريات ان احتلال ذلك المكان والاقامة فيه جرى منذ زمن يرجع الى الألف عام الأولى قبل الميلاد ، على الأقل ، ويستمر حتى نهاية القرن الأول بعد الميلاد . ولم تكن المواقع الأولى التي وجدت على نتوء الجبل اكثر من مأوى بسيط تم نحته بجانب ذلك المرتفع ، حيث كان الجرمنتيون يأوون مع قطعان ماشيتهم . ثم ظهرت هنالك فيما بعد مستوطنة جدرانها من الحجر الجاف ذات اكواخ من سعف النخيل ، وحلت محلها بالتالي منازل مبنية بشكل أفضل يحيط بها سور يلتف حول النتوء عند اسفله (الصورة رقم ١٠) . ثم اخذت المنازل الجيدة البناء من الطوب الطيني تحل مكان الابنية ذات الجدران الحجرية الجافة . وتبين التحريات بان الغرض من اقامة السور المحيط بالمنازل كلها هو حبس المواشي اكثر من اعتباره جداراً دفاعياً . وقد وجدت خارج حصن النتوء (وهو الجزء البارز من الجبل) سور أخر وأرصفة ، وفيها بعض آثار الاستيطان، ثم وجدت بعد ذلك مدافن تنتشر في المنطقة القريبة .

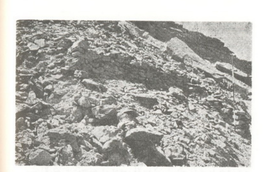


الصورة رقم ٩ : حصن زنككرة ، القمة والمنحدرات الجنوبية

أما على قمة النتوء المرتفع فان السور الذي ما زال واقفاً عبر عنق البرزخ كان بوضوح قد بني من أجل الدفاع (الصورة رقم ٩) . وقد اقيم خلفه في وقت سابق سور آخر، وحفرت كذلك حفرة في أضيق مكان بعنق النتوء . غير ان السور القديم أختفى كلية تقريباً . والظاهر ان الجزء المحمي من النتوء كان يكتظ بالسكان والمنازل التي كان أقدمها مجرد ملاجيء بسيطة أو حواجز واقية ، مبنية جزئياً من الخشب ، ثم استبدلت بأكواخ ذات جدران من الحجر الجاف ، ولكنها جيدة البناء. وكانت الاكواخ تتجمع في بعض الاماكن لتكوّن قرية صغيرة (الصورة رقم ١٠) . وتدل الرسوبات الغنية من فضلات الماعز والغنم على ان الجرمنتيين كانوا يحفظونها معهم على قمة النتوء .

وعلى هذا الشكل والوضع كانت مساحة حوالي أربعة هكتارات من المنحدرات الشمالية وقمة هذا النتوء مكتظة السكان . وقد بقيت حتى الآن آثار اكثر من مائتي موقع مسكون ، تختلف من مجرد مأوى إلى منازل مبنية من الحجر الجاف والطوب الطيني. وتقع آخر هذه المنازل على المنحدرات الشمالية ويمكن ارجاع تاريخها إلى القرن الاول الميلادي . وربما كان احتلال قمة النتوء قد توقف في وقت سابق غير بعيد .

وعلى النقيض نجد ان المنحدرات الجنوبية لم تستوطن بشكل كثيف ، كما هو الحال على المنحدرات الشمالية ، ويبدو أن الابنية المكتشفة على جميع المنحدرات ترجع إلى اواخر الفترة



الصورة رقم ١٠ : ١ ـ منحدرات زنككرة الشمالية بيت مبكر



الصورة رقم ١٠ ـ ٢ ـ قمة زنككرة بيت مبكر

التي كان الجرمنتيون يعيشونها على النتوء ويقيمون هناك. وتتكون هذه الابنية في الغالب من منازل منفردة صغيرة ترجع إلى القرن الاول بعد الميلاد . وكانت هذه الابنية تتكون من منصة صلبة من الحجر الجيد النحت ، والتي كانت تنفع كاساس لجدران الطوب الطيني (الصورة رقم ١١) . وكان كل منزل يتكون من حجرتين أو اكثر ، ويحتوي احياناً على ساحة صغيرة .

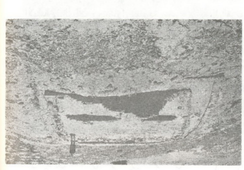
وتوجد أسفل المنازل، على السطح المستوي للوادي، مستوطنة كبيرة تتكون ، على الأقل ، من ستة ابنية مستطيلة الشكل منتظمة البناء ، وتختلف هذه المنازل من وحدات منفردة أو ذات غرفتين إلى صف من الغرف يزيد طوله عن مائة قدم، ذات جناح ملحق بجانبها الشرقي . وتبنى معظم هذه المنازل من الطوب الطيني ، غير ان حالة أو حالتين وجدت فيها المساكن مبنية من الحجر الغير مكسو . ويوحي الفخار الموجود بهذه المنطقة انها ترجع إلى اواخر القرن الاول قبل الميلاد او الى القرن الاول الميلادي .

أمـــا مساحة المنطقة المعنية في زنككرة فهي عظيمة : فالمستوطنات القائمة على السفح الشمالي وعلى القمة داخل الجدار المحيط بالمنازل تحتل اكثر من ثماني هكتارات ، بينما تتراوح المساحة الكلية للمنطقة الداخلة ضمن الارصفة أو جدران التسييج ما بين عشرين إلى اثنين وعشرين هكتاراً . (الواقع ان الارصفة قد دمرت في بعض الاماكن وربما كانت المساحة الكلية

المسيجة أصلا تزيد أربعة هكتارات عن الرقم السابق .)

ويبدو ان آخر المستطوطنين الجرمنتيين قد غادروا زنككرة في أواخر القرن الاول الميلادي ، ثم انتشرت وظهرت سلسلة من المقابر ، بعضها خارج الجدار المحيط بالمنازل وبعضها داخله. وتختلف مساحة وحجم هذه المقابر من مجرد اكوام قليلة من الحجارة إلى مئات كثيرة منها في كل مقبرة . وتقرب مساحة اكبر مقبرتين من هذه المقابر من هكتار ونصف ، ويبدو ان احداهما استمرت مستعملة حتى القرن الرابع الميلادي.وهكذا نرى ان زنككرة ، التي بدأ وجودها كقلعة يسكنها الأحياء ويعمرونها ، انتهت إلى مدينة صامتة يسكنها الاموات .

تبين المكتشفات الأخيرة بأنه لا بد من استمرار وجود ما للحياة والاقامة في موقع بوسط وادي الآجال ، ترجع الى القرن الرابع أو الخامس الميلادي ، وهذا الموقع هو الذي أصبح اسطورة مدينة جرمة ، عاصمة الجرمنتيين . ولكن لم يمكن حتى هذا الوقت الربط بشكل قاطع بين الابنية وبين هذه الإقامة ، غير أن العثور على قطع من الفخار التي ترجع إلى ذلك التاريخ يشهد على وجود وحدوث تلك الاقامة . وقد تم اختيار هذا الموقع للاقامة لوجود نبعه الذي يفيض ويجري طول السنة. ولكن يحتمل ان هذا المكان كان يقع في الازمنة القديمة على حافة بحيرة ، تمثلها حالياً طبقات منخفضة من الملح الجاف ، لا زالت تفيض حتى اليوم على نحو دوري وبدرجات متفاوتة



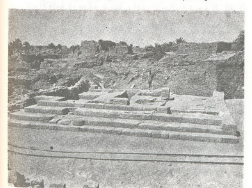
الصورة رقم ١١ : ١ ـ فيلا بزنككرة ترجع الى زمن الرومان



الصورة رقم ١١ ـ ٢ ـ جانب من فيلا يبين الحجر المربع



الصورة رقم ١٢ : ١ ـ بناء حجري تم الحفر عنه



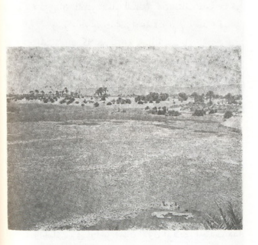
الصورة رقم ١٢ ـ ٢ ـ ابنية من قوالب الطين في جرمة ترجع الى زمن مبكر

(الصورة رقم ١٣) . وإذا كانت هذه المنطقة بحيرة فعلا فلا بد من وجود مساحة كانت تغمرها المياه الضحلة جنوب المدينة ، ولا بد ان جرمة كانت تحتل أرضاً مرتفعة على شكل قضيب أو حاجز يخترق مساحة واسعة ضخمة من المياه الضحلة . وكما نتصور ، نرى ان المظهر العام للمنطقة كان يختلف تماماً عما هو عليه اليوم . وسواء أوجدت بحيرة حقيقية ام لم توجد ، فيبدو الآن من المحتمل ان كلا من جرمة وسانية جبريل ، التي تبعد مسافة ٣٠٠ متر إلى الشرق ، كانتا جزءاً من جرمة القديمة ، التي كانت ، عند أعظم امتداد لها ، تغطي جزءاً من الأرض تصل مساحته إلى عشرين هكتاراً . (الشكل رقم ٨) .

وقد بينت الاكتشافات التي انجزت حتى اليوم ان اقدم استيطان تم في المنطقة حل في منطقة تقع تحت مدينة جرمة الحديثة ، لأن الأبنية المشيدة من الطوب الطيني ، والتي تتراكم في طبقات فوق بعضها البعض ، وترجع إلى فترات عديدة تبين، كما تبين ذلك أيضاً ارضيات المنازل المسحوقة والملاجيء ، بأن ذلك الموقع . الذي استوطنه الناس في وقت ما ، استمر مركزاً للاقامة والحياة . وفي أواخر القرن الاول الميلادي اجتذب هذا الموقع جميع سكان زنككرة تقريباً ، أما مع مجيء منتصف القرن الثاني الميلادي فلا بد ان الناس هجروا القلعة الواقعة على قمة المرتفع بزنككرة الى مكان المقابر التي تقع الآن على منحدراتها السفلى . أما في سانية جبريل فقد دامت الحياة حتى

مطلع القرن الثالث الميلادي ، ولكن جرمـة ظلت مسكناً ومكان إقامة مدة أطول بكثير ، وأصبحت هذه المنطقة بالتالي المدينة العربية التي استمرت إلى يومنا هذا (الصورة رقم ١) .
وتوجد على كلا الموقعين عمارات جيدة البناء والتنظيم مبنيـة من الطوب الطيني ، تمثل الفترة الأولى. وفي جرمة (الصورة رقم ١٢ والشكل رقم ٩) أزيلت بعض هذه الأبنية لتفسح الطريـق وتترك المجال لقيام بناء حجري كبير يثير الدهشة والاعجاب .
ويعتبر هذا البناء الحجري (الشكل ٩ (١) ، وهو في أقصى الجنوب من المنطقة التي حفرت حتى الآن) اكـثر تعقيداً وتقدماً ، من حيث التخطيط والتنسيق، من أي بنـاء آخر في زنككرة او أي بناء موجود حتى الآن في جرمة او سانية جبريل ، بينما تعتبر جدرانه من الحجر المربع مناقضة تماماً لكل ما سبقه من الابنية ، وإلى درجة تجعل من المستبعد بناءه بدون استقدام رجال مهرة وبنائين فنيين من خارج مملكة الجرمنتين.
ويتضح في البناء ثلاث فترات رئيسية من اعادة البناء والتعديل، ترجع الى مطلع القرن الرابع الميلادي على الاقل . أما مرحلة البناء النهائية فيصعب تحديدهـا ، ولكن القصف العنيف الذي تعرض له الجدار الغربي يوحي بحدوث تدمير هو من فعـل منجنيق ، وربما يعني هذا ظروفاً غير سلمية مر بها البناء، رغم ان السلام هو الانطباع العام المأخوذ عن جرمة .

لقد كان هذا البناء كبيراً ومثيراً للدهشة والاعجاب ، ولا



الصورة رقم ١٣ سانية جبريل والبحيرة كما ترى من جرمة

بد أنه كان مقراً لحياة عائلة غنية او ارستقراطية . وعلى عكس هذا النوع من البناء ، تواصلت الأبنية الأخرى الطينية في أماكن أخرى من جرمة وسانية جبريل في القرن الثاني الميلادي ، رغم ان الحجارة المكسوة الصغيرة الحجم والمشابهة للحجارة المستخدمة في بيوت زنككرة استخدمت في موقع ، على الاقل ، بجرمة بجوار استخدام الطوب الطيني (الصورة رقم ١٢) . ومع ذلك تبين الجدران المزينة بالطلاء والمكسوة بالجص ، وتبين أرضيات الغرف الطينية المطلية بالجير ، بان هذه الأبنية لم تفتقر إلى النظام او الراحة ، رغم انها لم تكن من الحجارة . ويظهر خلوها التام من فضلات الحيوانات تناقضاً مع ابنية زنككرة ، حتى مع آخرها واكثرها تقدماً . وقد وجد في سانية جبريل الكثير من الآنية الفخارية ، الرومانية منها والمحلية ، بما فيها من جرار كبيرة للتخزين ، كما وجدت عظام خنازير وماعز وغنم ، ووجدت ايضاً – آثار معدات مغازل نسيج . والواضح إذن ان القماش كان ينتج محلياً، وان الجرمنتيين لم يعتمدوا على استيراد هذه المادة . وعلى بعد مسافة قريبة وبجانب بناية اخرى بسانية جبريل ، وجدت آثار صهر وحدادة تدل على قيام نشاط في هذا الميدان ، وتدل قطع مخلفات الصهر على مزاولة عمليات صهر المعادن وصناعة الزجاج . ويبين كل هذا وجود تطور فني يعتبر فوق مستوى ثقافة زنككرة .

وهُجرت سانية جبريل فيما بعد . أما في جرمة فقد

استبدلت الأبنية القديمة المشادة من الطوب الطيني بأبنية اكبر وأكثر إثارة للاعجاب ، ولكنها من الطوب ايضاً ، غير انها بنيت على اسس حجرية عميقة (الشكل ٩ رقم ٣ ، ٤) . ولم يبق اليوم من تلك الابنية ، التي تم الحفر عنها اليوم ، الا أسسها الحجرية (الصورة رقم ١٢) ، وهي تعطي الزائرين انطباعاً بانها كانت مبنية بكاملها من الحجر. وفعلاً نجد ان الاعمال الحفرية الاخيرة تبين احتمال صحة هذا الأمر بالنسبة للأبنية التي تقع في اقصى الشرق ، أما الابنية الاخرى فانها بنيت كلها من جدران من الطوب الطيني ترتكز على أساس حجري .

ورغم الأهمية العظيمة لجرمة والاعجاب الشديد بها فلا بد ان يكون الكثير من الجرمنتيين قد عاشوا في قرى أو في منازل منفردة صغيرة ، كما يفعل الكثير من الفزانيين اليوم : ويؤيد هذا الاحتمال اتصال وامتداد خطوط المقابر والفخار (مجاري الفخار الزراعية) على طول وادي الآجال . والكلمة اللاتينية الشائعة الاستعمال للدلالة على المستوطنات الافريقية هي كلمة « مباليوم » ، وهي تعني الكوخ المصنوع من الوتل ، أي من الحشائش المضفرة ومن الاغصان ، أو من بنات البرواق المقام على قاعدة واطار معين ، والمشابه للقارب المقلوب . وتوجد أمثلة من هذه الاكواخ على حجر الموزايك في متحف باردو بتونس (الشكل رقم ١٠) . ولا شك ان المباليا قد استخدمت من قبل الجرمنتيين ، وخاصة في الايام الاولى ، ولكن يبدو أيضاً

ان الطوب الطيني قد ابتدأ استعماله في وقت لا يتعدى القرن الاول قبل الميلاد ، وان المستوى العام للقبيلة كان اعلى من غيرها من القبائل .

أما عن الانتاج الزراعي عند الجرمنتيين فنحن نعرف أن النخيل موجود بكثرة . ويخبرنا بليني ان « دواخل افريقيا حتى موطن الجرمنتيين ، وكذلك الصحراء ، مغطاة باشجار النخيل التي تمتاز بحجمها وفاكهتها الحلوة المذاق الزكية الرائحة » . وستلقي تحليلات اللقاح والمواد الأخرى التي اكتشفت اثناء الحفريات ، المزيد من الضوء على الحياة النباتية هناك. ويحتمل ان تكون انواع كثيرة من الاشجار والنباتات قد نمت عند الجرمنتيين، وخاصة القمح والشعير والحبوب الاخرى،والخضار المتنوعة والتين واللوز والرمان والزيتون والقطن والبرسيم والكثير من الاعشاب .

ورغم انه ليس لدينا ما يؤكد بشكل قطعي من أن قنوات الفخار ترجع إلى عهد الجرمنتيين ، لا الى العصور الوسطى ، فان ما عندنا الآن من البينات القليلة المدركة من علاقة الفخار مع المقابر المكونة من أكوام الحجارة ، ومن المظاهر الاخرى امثال جدران زنككرةالخارجية المضروبة حول المنازل القديمة ، يوحي بقوة بان الفخار يرجع إلى زمن الجرمنتيين . ولا بد ان الكثير من مئات الاميال ، ان لم تكن الآلاف ، من الاروقة والاعمدة كانت قد بنيت واقيمت في وادي الآجال فيما بين

الابياض تين ابوندة . ولا بد ان العمل الذي لزم لحفر الأنابيب وصيانتها عظيم . ويبدو ان الزراعة الناتجة عن ذلك توحي بوجود اوضاع مستقرة . وقد انتعشت هناك الاشجار الكبيرة والصغيرة والخضر والحيوانات لكثرة المياه التي تجلبها شبكة المياه بجمعها وتوزيعها خلال القنوات . ولا شك ان الثيران الشهيرة التي تسير إلى الخلف قد ربيت مع الغنم والماعز والخنازير ، وكلها مؤكدة من بقايا العظام ، وكذلك الخيل أو الحمير اللازمة للمركبات او العربات .

ولكن الزراعة لم تكن إلا جانباً واحداً من الاقتصاد الجرمنتي : أما التجارة فكانت بالتأكيد هي الجانب الآخر . وتشهد الثروة التي وجدت بالقبور في وادي الآجال من المستوردات الجيدة الانواع ، على وجود شيء عند الجرمنتيين كان الرومان بحاجة اليه وعلى استعداد لدفع ثمنه . ولكن المشكلة ما زالت دون حل لعدم وجود سلطة قديمة تقرر بوضوح وجود تجارة القوافل ، إما من عند الجرمنتيين أو اليهم . ولكن العلماء المعاصرين ينظرون إلى ثروة لبدة والمدن الساحلية الأخرى ، ويرون ان تجارة القوافل لا بد انها قد انتعشت في الأزمنة القديمة مثلما كانت في العصور الوسطى ، وبها اغتنى الجرمنتيون كوسطاء وسماسرة يسيطرون على الواحات ونقاط الراحة الواقعة على الجانب الشمالي من وسط الصحراء . ومع ذلك يبقى الأمر صعب الاثبات ، رغم ان معظم التجارة التي كانت تمر

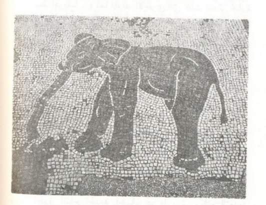
عبر الاسواق كانت سهلة المنال في طرابلس والمناطق الساحلية، كمثل سهولتها في فزان أو في المناطق التي تتعداها إلى الجنوب . والمادة الوحيدة المعروفة الانتاج في الصحراء هي العقيق الأحمر المشهور ، او ما كان يسمى الحجر القرطاجني . ويعتبره «بوفيل» السلعة الرئيسية في تجارة الجرمنتيين . (كتاب بوفيل : التجارة الذهبية للبربر) ويرى سترابون ان أصل مصدر العقيق الأحمر عند الجرمنتيين ، ولكن بليني ، الذي يخبرنا انه يأتي من جبل جـيري ، يتحدث عن مكان آخر يعيش فيه سكان الكهوف « الذين ينحصر اتصالنا وتعاملنا معهم على تجارة الحجارة الثمينة المستوردة من اثيوبيا والتي نسميها العقيق الاحمر . » ويبدو ان الجرمنتيين كانوا وسطاء في هـذه التجارة ، ان لم يكونوا هم فعلا المسيطرون عليها . »

ويسجل بليني في مكان آخر من كتابه ان الفيلة « كانت تربى من قبل الافريقيين الذين يعيشون فيما وراء صحراء سرت، في بلاد البربر وفي بلاد اثيوبيا وسكان الكهوف . » وان«اسنانها» كانت ذات ثمن باهظ ، لأنها كانت تستعمل في صنع صور للآلهة ذات شكل خاص . ولكن الكاتب أوريجما جمع أدلة وادعى بان تجارة العاج كانت من اختصاص المدن الساحلية . وقد كان شعار تجار صبراته هو الفيل (الصورة رقم ١٤) . ووجد ايضاً في الشارع الرئيسي للبدة تمثال لفيل كبير ، والمعروف ان لبدة وطرابلس كانتا تعظمان « سن » الفيـل . (لم يكن الرومان

يفرقون بين انياب الحيوانات وبين اسنانهـا ، والانياب هي المقصودة في جميع امثال هذه الحالات .)

ويمكن اضافة الحيوانات المتوحشة إلى العاج كمادة للتجارة: وقد رأى رستوفزيف رجلا يسمى بورفيريوس تلقى هديـة فخرية من مجلس شيوخ لبدة لأنه كان «بالتأكيد مصدراً للوحوش من وسط افريقيا . » أما المواد الاخرى التي كانت تنعش تجارة القوافل فهي تبر الذهب ، (معروف ان الذهب كان ناقصاً دائماً من اسواق الامبراطورية الرومانية لأنه كان يتجه إلى الشرق مقابل استيراد روما للبضائع الفاخرة .) والاخشاب الثمينة ، مثل الابنوس ، والجلود ، وريش النعام وبيضه ، وربما العبيد ، ولكن يبدو ان هذا الصنف الأخير قد تطورت تجارته في عهد الرومان (أما مـا قاله كل من سبتيموس فلاكوس ويوليوس متيرنوس فانما كان متأثراً باهتمامها شخصياً بهذه التجارة وسفرهما الى الجنوب من اجل ذلك .) ويمكن اضافة عدد من البضائـع المصنوعة محلياً إلى قائمة التجارة ، مثل التمور والحبوب. ويقترح ويلر مواد النطرون ، وهي مادة هامة لصناعة الزجاج ، والملح، وربما تطور انتاج الحديد الخام عن طريـق وكلاء التعدين والمكتشفين .

ويمكن ، على العموم ، اقتراح قائمة من السلع المتكونة بشكل جزئي من الانتاج الجرمنتي ، ومن المواد المجلوبـة عبر وسط الصحراء ، رغم صعوبة اثبات ان أكثر هذه المواد كانت



الصورة رقم ١٤ : فيل شركة صبراته التجارية «اوستية»

من هذا المصدر ، بل ان الحصول عليها كان أسهل في المنطقة الساحلية . ومن جهة أخرى لا بد من وجود شيء ما كان الرومان يحصلون عليه من الجرمنتيين مقابل البضائع التي كانت تتجه من الساحل إلى الجنوب ، وما زالت التجارة من الانواع المحددة سابقاً هي أفضل جواب لهذه المسألة .

هذه هي معرفتنا الحالية الموجزة عن الجرمنتيين . وليس من المفاجيء او الغريب ان تبقى الكثير من الاسئلة دون ردود واجابات ، ذلك لأن الجرمنتيين استمروا طويلاً يحرصون على أسرارهم ويصونونها بشكل محكم ، ونحن ما زلنا حتى الآن نقف بابحاثنا على عتبة عالمهم المهيب .

هذا الكتاب

من هم الجرمنتيون؟ إذا ما رجعنا إلى المصادر الأدبية القديمة التي كتبت عن هؤلاء القوم لم نجد سوى مجرد صفحات قليلة في مؤلفات هيرودون وبليني وسترابون وتاسيتوس وبطليموس وبومبونيوس. وهل كانت عاصمتهم «جَرْمَة» هي مدينة جَرْمَة الحالية المهجورة، أم ان علينا البحث عنها في مكان آخر؟ وما هو مدى اتساع المنطقة التي عاشوا فيها؟ وكيف عاشوا دون ان يكون لهم مدخل إلى البحر الذي كان يسيطر عليه أعداؤهم الرومان؟



دار الفرجاني

طرابلس ـ ليبيا